وزارة التعليـم العالـــي و البحـث العلمـــي

جامعـة محمد بوضيـاف – المسيلـة –

كلية الآداب واللغات

قسم اللغة والأدب العربي

الرقم التسلسلي:.....

رقم التسجيل: م أ ع/ 2014/154

الغربة والحنين في الشعر الفلسطيني

محمود درويش أنموذجا

مذكرة مكملة لنيل شهادة الماستر

الميدان: لغة وأدب عربي فرع: أدب عربي تخصص: أدب حديث

إعداد الطالبة:

طيبي لطيفة

إشراف الدكتور:

د/ بوديسة بولنوار

تاريخ المناقشة:

لجنة المناقشة:

- د/ بحوص زكري .....رئيسا
- د/ بوديسة بولنوار .....مشرفا
- د/ عمار عليوي.....ممتحنا

السنة الجامعية : 1436-1437 هـ / 2015-2016م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

مقدمة :

يعد موضوع الغربة والحنين من الموضوعات الهامّة التي عني بها الشعر العربي منذ القديم، فقد نالت الحيّز الوافر من الشعر، ذلك أنها مرتبطة بالذات الإنسانية شديدة الالتصاق بها ، وبما أن الغربة والحنين عبارة عن فيض متدفّق من المشاعر والأحاسيس فقد عكست باستمرار ما اختلج في نفوس الشعراء والمغتربين ولبّت ما أفرزته عواطفهم من حنين صاحبته اللوعة والحسرة على ما فقدوه.

ولقد عكس الشعر الفلسطيني وجدان الشعب الفلسطيني ومثّل مراحل حياته قبيل النكبة وبعدها ، فجسد جراح الشعب وآلامه ، لذلك كان لسنة 1948 أثر بالغ في نفوس الشعراء حين زرع داخلها الشعور بالغلبة والضياع.

ويعد محمود درويش أحد أبرز الشعراء الذين تركت النكبة أثرها فيهم، فقد خبر معنى التشرّد حين هام مع أبناء شعبه في الأرض وحين حرم لاحقا من العودة لوطنه كونه من الشعراء المناضلين بالكلمة، فصار يحلم بالعودة إليه ، يحنّ إلى أيامه الماضية وزمن الطفولة ، ومرتع صباه ، فغرض الغربة والحنين عند محمود درويش يختلف عن باقي الأغراض الشعرية كونه عبّر عن تجربة شخصية عاشها الشاعر منذ نعومة أظافره فكانت بذلك آثارها عليه أشدّ وأقسى مما عاناه في كبره ، ولقد حاولت في هذا البحث الذي يدرس ظاهرة الغربة والحنين في الشعر الفلسطيني تسليط الضوء على الشاعر محمود درويش فاتخذته أنموذجا لهذه الدراسة ، فكيف تجلّت ظاهرة الغربة والحنين في شعر محمود

درويش؟ وما هي أهم الأسباب التي كانت وراء إحساس الشعراء بالغربة في الشعر الفلسطيني عامة وعند محمود درويش خاصة ؟ وماهي أهم أنواعها ومظاهرها ؟

ومن هم أهم شعراء الغربة في فلسطين وكيف تجلت الغربة في شعرهم؟

هذا ما سعيت إلى الكشف عنه من خلال بحثي والذي يهدف إلى إماطة اللثام عن ظاهرة الغربة والكشف عنها.

ويعد الإحساس بالغربة من بين أهم الأسباب التي تفجر ينابيع الحنين في نفس الإنسان خصوصا إذا ما تعلق الأمر بفقد الوطن الذي يكون الرجوع إليه مستحيلا ، والشعر الفلسطيني مليء بالأحداث التي تعبّر عن عذابات أبنائه وقهرهم على فقد فلسطين ، ومحمود درويش أحد الشعراء الذين أحسوا بفجيعة الغربة ومرارة ضياع الوطن ، ويرجع سبب اختياري لموضوع بحثي هو أن جلّ من كتبوا في شعر محمود درويش إنما كانت دراستهم عن الاتّجاه الثوري وهناك من تناوله في دراسته لشعر الأسرى ، وكثير ممّن سعوا لإبراز البنية الجمالية في شعره أو بنية الزمكان وغفلوا عن تناول موضوع الغربة في شعره ،كما أن حبّي الشديد للشعر الفلسطيني وللشاعر محمود دروش دفعني لأن أختصهما بدراستي لأجل توسيع دائرة البحث والنظر إلى الشعر الفلسطيني وإلى شعر محمود درويش من زاوية أخرى .

وموضوع الغربة والحنين هو موضوع نال اهتمام الكتاب والشعراء على مرّ الزّمن إذ ليس بالجديد على أدبنا العربي خصوصا الشعر فقد ألف أبي الفرج الأصبهاني كتابه :

أدب الغرباء ، وألف الجاحظ كتابه الحنين إلى الأوطان ، وكتب عبد الرزاق الخيشوم كتابه الغربة في الشعر الجاهلي، كما كتب يحي الجبوري كتابه الغربة والحنين في الشعر العربي ، وغيرهم ممن أفردوا دراسات لهذا الجانب .

وقد جعلت رسالتي في مقدمة وتمهيد وفصلين ، وخاتمة ، تناولت في التمهيد ماهية الغربة والحنين وسعيت لإبراز الاختلاف بين مصطلحي الغربة والاغتراب ، كما كشفت عن جانب الغربة لدى المثقّف الفلسطيني من خلال رصد الوضع الثقافي لهم ، و تحدثت عن مسار الحركة الشعرية في فلسطين بإيجاز ، وأخيرا توصلت لسبب اغتراب المثقف الفلسطيني والذي أوردته كنتيجة لذلك ، أما الفصل الأول فقد خصصته لدراسة أنواع الغربة وأسبابها ومظاهرها وأسقطتها على الشعر الفلسطيني ، لأختم بذلك الفصل الأول بمبحث أفردته لبعض شعراء فلسطين ومواضيع الغربة في شعرهم ، أما الفصل الثاني فقد خصصته لدراسة "حالة محمود درويش " ،فتناولت حياته ، وتتبعت مسار حركته الشعرية بإيجاز وذكرت مؤلفاته ، أما المبحث الثاني فكان للكشف عن بواعث الغربة والحنين في شعر محمود درويش والتي وجدت أنها مرتبطة بالجانبين : الاجتماعي والسياسي، أما عن المبحث الأخير فكان عن تجليات الغربة والحنين في شعر محمود درويش بأنواعها الثلاث : المكانية ، والزمانية ، والروحية.

وقد اعتمدت في بحثي هذا على المنهج الوصفي ولكنني وجدت أن المنهج الوصفي وحده لا يكفي في تحقيق ما أصبو إليه ، فاستعنت بإجراءات المنهج النفسي ، كما وظفت التحليل النصي لبعض نصوصه الشعرية وفق ما يتناسب وحمولاته الفنية.

ولقد حاولت في هذه الدراسة أن أمزج في دراستي بين الشعر الفلسطيني وبين محمود درويش لأضفي جانبا جديدا إلى البحث وهنا تكمن أهمية دراستي.

وككل باحث واجهتني بعض الصعوبات التي استطعت التغلّب عليها بعون الله أهمها:

– أنّ جلّ من كتبوا في الشعر الفلسطيني لم يتعرضوا لجانب الغربة والحنين حيث طغى على بعضهم التوجّه السياسي وعلى بعضهم الآخر الاتجاه الثوري.

–أن جل من تناولوا الشاعر محمود درويش بالدراسة لم يتطرقوا إلى جانب الغربة والحنين عنده ما صعب عليّ التوصّل بادئ الأمر إلى الأسباب والبواعث التي دفعت به إلى الشعور بالغربة لكنني وجدت سبيلي أخيرا فيما قاله في كتبه النثرية فاستنتجت الأسباب المؤدّية لذلك–لغربته– من خلال رصد بعض اعترافاته واستغلالها على النّحو الذي يلزم بحثي.

وقد اعتمدت على بعض المصادر في انجاز هذا البحث أهمّها : ديوان الشاعر محمود درويش " الديوان الأعمال الأولى، و " الأعمال الكاملة " له ، إضافة إلى بعض الكتب التي ألّفها الشاعر مثل " أنا الموقّع أدناه" و " يوميات الحزن العادي" ، كما اعتمدت على بعض المراجع أهمها: كتاب "الغربة والحنين في الشعر الأندلسي عقب سقوط الخلافة لأشرف علي دعدور " وكتاب " أثر الفكر اليساري في الشعر الفلسطيني

محمود درويش ، وسميح القاسم، وتوفيق زياد لرقية زيدان " ،وكتاب " محمود درويش ومفهوم الثورة في شعره لفتحية محمود ".

وأخيرا ليس هناك أفضل من الاعتراف بجميل الآخرين حيث أتقدّم بجزيل الشكر ووافر الامتنان إلى مرشدي ودليلي الأول الذي كان لي خير معين في انجاز هذا البحث " **بوديسة بولنوار**" والذي سخّر لي كل وقته وأثراني بالنصائح والتوجيهات التي بفضلها أتممت بحثي وأشكر كل من ساهم في انجاز هذا البحث من قريب أو من بعيد.

تمهید

تمهيد:

ماهية الغربة والحنين: الشعور بالغربة أمر فطري في الإنسان (وهي تختلف من مكان لآخر، ومن مجتمع لآخر، ذلك أنها تتلون بطبيعة صاحبها وبالمجتمع وما يحكمه من أنظمة ومؤسسات، وبطبيعة العصر وما يحتويه من قيم ،وأعراف، ومعارف)[1]، والغربة ظاهرة قديمة (فهي ليست جديدة في حياة الإنسان ، فقد عرفها منذ أقدم العصور بل ومنذ أن عرف الإنسان الحياة وأخذ يتنقل تبعا لمتطلبات السعي للحياة الفضلى ، وكلما ازدادت طموحاته وتبدلت ظروفه أدّى به ذلك إلى عدم البقاء في مكان واحد)[2] وبما أنها- الغربة – قد أخذت مساحة واسعة في شعرنا العربي- خصوصا في شعر هذا العصر- فإن البحث عن معناها عند العرب بداية أمرها يقع ضمن الجذر "غرُبَ" ومعاني الغربة التي يحملها هذا الجذر عديدة ومتنوعة استخدمها العرب في شعرهم ولغتهم.

وبما أن دراستي تختصّ بالشّعر العربي وتحديدا الشعر الفلسطيني فقد ارتأيت أن أتطرّق في تحديد مفهوم الغربة بدءا بالمعاجم العربيّة ثم الّدراسات الحديثة .

---

[1]- عمر بوقرورة :الغربة والحنين في الشعر الجزائري الحديث (1945،1962) ، مركز منشورات جامعة باتنة ، مطابع عمار قرفي ، باتنة الجزائر، ص13

[2]- زاهر الجوهر حنني: من أدب الأسر ، شعر المعتقلات في فلسطين ، (دط)،(دت)، ص 30

أ. مفهوم الغربة في المعاجم العربية: ورد في لسان العرب في أصل مادة "غَرُبَ" : غَرُبَ : الْغَرَبُ وَالْغَرْبُ بمعنى واحد ، ابن سيّده، والْغَرْبُ خلاف الشّرق وهو المغرب

،وقوله تعالى: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾[1]،أي أحد المغربين : أقصى ما تنتهي إليه الشّمس في الصيف وأقصى ما تشرق منه في الشّتاء .

والْغَرْبُ: الذهاب والتنحي عن النّاس، وقد غَرُبَ عنّا يَغْرُبُ غَرْبًا وأَغْرَبَ، وَأَغْرَبَهُ بمعنى نحّاه.

وفي الحديث أنّ النبي صلى الله عليه وسلم أنه أمر بتغريب الزاني سنة إذا لم يحصن ، وهو نفيه عن بلده .

يقول عليه الصلاة والسلام : «اَلْبِكْرُ يُجْلَدُ وَيُنْفَى »[2]. والنَّفي هو الإبعاد عن الوطن الذي وقعت فيه الجناية.

والغُرْبَةُ وَالْغَرْبُ: النّوى والبعد ، وقد تَغَرَّبَ ، ونوى غُرْبَةً بعيدة , وغُرْبَةُ النّوى بعدها

قال الشاعر:

---

[1]- سورة :الرحمان، الآية 15

[2]- النووي: شرح الأربعين النووية في الأحاديث الصحيحة النبوية ، شرح ابن دقيق العيد ، ط1، الشركة الجزائرية اللبنانية (1468 هـ ،2007)، ص20

وشَطَّ وليُ النَّوَى، إِنَّ النَّوَى قُذُفٌ تَيَّاحةٌ غَرْبةٌ بالدَّارِ أَحْيانا .[1]

والنّوى هو : المكان الذي تنوي أن تأتيه في سفرك.

والتَّغْرِيبُ :النّفي عن البلد ، والتَّغَرُّبُ البعد، ويقال غَرَّبَهُ وَغَرُبَ عليه بمعنى تركه بعيدا، فَالْغُرْبَةُ وَالْغَرْبُ بمعنى النّزوح عن الوطن ، والْغَرِيبُ هو البعيد عن وطنه والجمع

غُرَبَاءْ والأنثى غَرِيبَةٌ[2].

إذن : وردت الغربة بمعنى البعد عن الوطن والنوى ، وهي تفيد البعد المكاني ، فمتى كان المرء بعيدا عن موطنه في مكان آخر غريب عنه كان في غربة.

ونفس الأمر نجده في معجم العين ، حيث وردت الغربة بمعنى النّزوح عن الوطن فقد ذكر الخليل في معجمه : أنّ الْغُرْبَة : الاغْتِرَابُ عن الوطن ، ويقال : غَرُبَ فلان عنَّا يَغْرُبُ غَرْبًا ، أي تنحّى وَغَرَّبَتْهُ ، وأَغْرَبْتُهُ ، أي نَحَّيْتُهُ.

والْغُرْبَةُ : النَّوَى والبعد ، يقال : شققت بهم غُرْبَةُ النّوى ، ويقال نحن غِرْبَانٌ أي غَرِيبَانِ ، قال الشاعر:

[1] جمال الدين ابن منظور: لسان العرب،،ط3، دار صادر للنشر، بيروت، 1414ه ،ص638

[1]- ابن منظور: لسان العرب، ،ص638

وَتَأَنَّ فَإِنَّا غِرْبَانْ [1]

وقال الشاعر:

لاَحَتْ هَجَائِنُ بَأْسِي لَوَّاحَةٌ غُرُبًا [2]

في معنى الغربة والاغتراب (مفارقة اصطلاحية):

إنّ التمييز بين مصطلحي الغربة والاغتراب أمر لا يكاد يخلو من التعقيد ذلك أن التداخل الحاصل بين المفهومين على المستويين الدلالي والصرفي يقتضي بنا العودة إلى أصل كلمة "غُرْبَة" المستمدة من الفعل الثلاثي " غَرَبَ" والتي تتفرع منها اشتقاقات عديدة من بينها كلمة "اِغْتِرَابْ" والتي هي افتعال من المشتقة اللغوية السابقة "غُرْبَةٌ" كما أورد الخليل في معجمه وتأخذ بدورها على معان عديدة في مختلف اللغات والدراسات الحديثة نحاول الوصول إليها بإيجاز بدءا بضبط المصطلح في اللغات الأخرى ثم تحديد دلالتها .

(إنّ مقابل كلمة الغربة والاغتراب في اللغة الانجليزية alienation، وفي الفرنسية aliénation وأصلها في الكلمة اللاتينية أليانتو alientio ويشير الاغتراب في تلك اللغات في حالة تحول الكائن إلى خارج ذاته ، أو تجاوز ذاته ، وقد استخدمت كلمة

[1] الخليل الفراهيدي : العين ، تحقيق : مهدي مخزومي وآخرون (100هـ ، 710م) ، ج4،ص410،ص411

[2] – المصدر السابق، ص:411

الاغتراب في العلاقات الإنسانية لتدل على الإحساس الذاتي بالغربة أو الانسلاخ detachement سواء عن الذات أو عن الآخرين)[1].

أما الكلمة العربية "غُرْبَة" فجاءت للدلالة على معنى النوى والبعد كما سبق الإشارة ، فالغريب هو البعيد عن وطنه ، والتَغَرُّبُ النفي عن البلد ، فالكلمة تشير إلى معنى مكاني وآخر اجتماعي، والغربة والاغتراب في المعجمات العربية إنّما تدلّ على البعد والانفصال عن الآخر. وقد جاء في شعر المتلمس :

أَلَا أَبْلِغَا أَفْنَاءَ سَعْدِ بْنِ مَالِكْ رِسَالَةَ مَنْ قَدْ صَارَ فِي اَلْغُرْبِ جَانِبُهُ[2]

واِغْتَرَبَ الرجل : نكح في الغرائب ، ولّى غير أقاربه، وفي الحديث تزوج إلى غير أقاربه : «اِغْتَرِبُوا لَا تُضْوُوا » ، أي لا يتزوج الرّجل القرابة فيجيء ولده ضاويا.[3]

ومما سبق ورد مفهوم الغربة والاغتراب بمعنى واحد وهو التنحي والبعد عن الوطن ، ومنه إذا كانت الغربة ماديّة فإنّ الاغتراب مكاني وإذا كانت الغربة معنوية فإن الاغتراب نفسي، فمتى ارتبطت الغربة بماديات المكان (بيت ، وطن ، أرض ...)كان الاغتراب مكاني ، وحين يكون الشعور بالغربة حصيلة لمعاناة داخلية يحسّها الفرد في مجتمعه بين أبناء جنسه بسبب لونه أو فكره أو تدينه في مجتمع ينبذ حياة

[1]- يحي الجبوري: الحنين والغربة في الشعر العربي ، الحنين إلى الأوطان ، ط1، دار النشر: مجدلاوي المملكة الأردنية الهاشمية ، (1428ه ، 2008م)، 16

[2] ابن منظور: لسان العرب، ص638.

[3]- ابن القيم الجوزية : مدارج السالكين ، ط1، ج2، القاهرة ، 1992، ص":122

الدّين ،كان الاغتراب معنوي مرتبط بالحالة الانفعالية أي بداخل الإنسان و هنا يدخل الفرد في حالة عزلة اجتماعية ليعيش بعدها في غربة فردية سببها المجتمع فهذه :اغتراب اجتماعي فهو في مجتمعه لكنه غريب عنه ،

وخلاصة القول: فإن الفرق بين الغربة والاغتراب يكمن في أن الشخص في الحالة الأولى يكون بعيدا عن موطنه، أما في الحالة الثانية فيكون فيها الشخص داخل موطنه بين أهله وذويه إلا أنه يحس بالغربة بينهم بسبب نبذهم له أو تجنبه لهم لسبب ما لا يتوافق معهم. – وتأخذ الغربة أبعادا عديدة نورد منها ما يوافق موضوع بحثنا.

1ــ المعنى الديني: ويتعلق بانفصال الإنسان عن الله ، أي يتعلق بالخطيئة وارتكاب المعصية ، والخطيئة بحسب التصور الديني في الإنجيل ليست مجرد تعدٍّ على شريعة الله وأحكامه وإنما هي في جوهرها انفصال عن الله ، أما معناها في الإسلام فنجده في قوله تعالى ﴿ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهْ وَ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُو وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَ مَتَاعٌ إِلَى حِينْ﴾ .(فلم يزل عدوّهما يوسوس لهما ، ويزيّن لهما تناول ما نهيا عنه ، حتى أزلّهما ، أي حملهما على الزلل بتزيينه بالله فاغترّا به وأطاعاه، فأخرجهما مما كانا فيه من النعيم والرغد واهبطوا إلى دار التعب والنصب والمجاهدة).[1]

[1]– عبد الرحمان بن ناصر السعدي : تيسير الكريم الرحمان في تفسير كلام المنّان، تحقيق عبد الرحمان بن معلا اللويحق ، ط1، دار ابن حزم للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان، (1424هــ ، 2003م)، ص35.

فحين ارتكب أبونا آدم عليه السلام وأمنا حوّاء الخطيئة بإتباع غواية الشيطان لهما ،أخرجهما الله من الجنّة فكان هذا بداية الاغتراب فلم يعودا يسكنان الجنة فكان ذلك اغتراب مكاني عن الموطن الأوّل الجنة إلى منفاهما الجديد الأرض ، لكن الاغتراب الذي عانيا منه وكان شديد الوقع عليهما هو الاغتراب الروحي فهما لم ينفصلا عن المكان فقط إنما كان الشعور بالغربة وبالضياع هو أشد ما عانياه فقد فقدا الإحساس بالأمن والمأوى وصار ملزمين بمواجهة مصيرهما المجهول لوحدهما .

2ــ المعنى الاجتماعي:(إن الاصطلاحات اللاتينية الدالة على الاغتراب يمكن استخدامها بشكل عام في مجال العلاقات الإنسانية بين الأشخاص ، فقد استخدمت كلمة الاغتراب قديما للتعبير عن الإحساس الذاتي بالغربة ،أو الانسلاخ detachement سواء عن الذات أو عن الآخرين ، فالفعل اللاتيني alienar يمكن أن يدل على معاني التسبب في فتور علاقة حميمية مع شخص ما ، أو في حدوث انفصال ، أو جعل شخص ما مكروها ، أيضا يمكن أن تشير الكلمة اللاتينية alination إما إلى هذه الحالة من الانفصال أو الشقاق ، أ, إلى الظروف التي تنجم عنها ، وما زال هذا المعنى هو الشائع في الاستخدام الحديث للكلمة الإنجليزية "اغتراب" alienation حتى وقتنا الحالي).[1]

[1]-عبد اللطيف محمد خليفة : دراسات في سيكولوجية الاغتراب ، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة ، 2003، ، ص24

3ــ المعنى السيكولوجي: (هناك استخدام آخر تقليدي alienation يعود إلى انجليزية العصر الوسيط ، بل ويمتد بجذوره إلى اللاتينية القديمة ، حيث يمكن للإنسان أن يلاحظ أن كلمة alienatio في اللغة اللاتينية تدل على حالة فقدان الوعي وعجز أو فقدان القوى العقلية أو الحواس)[1] ، ويرى إيريك فروم أن:(الاغتراب استعمل للدلالة على الشخص المجنون)[2]، في حين يرى محي الدين بن عربي: (أن أول غربة اغتربناها عن وطن القبضة عند الإشهاد بالربوبية لله علينا ثم عمرنا بطون الأمهات فكانت الأرحام وطننا ، فاغتربنا عنها بالولادة)[3]. ومعناه التعلق بالذات الإلهية والوصول إلى معرفة الخالق دون واسطة بالعقل الباطني وهي أعلى مراتب الصوفية.

في المعنى الاصطلاحي: فقد جاء في حديث الرسول عليه الصلاة والسلام قال : « بدأ الإسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ غريبا فطوبى للغرباء »[4] (والغرباء هنا هم النزّاع من القبائل ، وقيل الغرباء هم الذين يصلحون إذا فسد الناس).[5]

والغربة في مقابل الألفة والأنس ، ومعنى الحديث أن الإسلام بدأ أول مرة كالغريب الوحيد الذي لا أهل له لقلة المسلمين يومئذ ، وسيعود كما كان عليه.

---

[1]- عبد اللطيف محمد خليفة : سيكولوجية الاغتراب ،ص25

[2]- ينظر إيريك فروم: المجتمع السوي ، ترجمة محمود منقذ الهاشمي ، ط1 ، 2009 ، ص:232

[3]- ينظر عبد اللطيف محمد خليفة : المرجع السابق ، ص: 28

[4]- مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشري النيسابوري: المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، (دط)، دار احياء التراث العربي ، بيروت ،(دت)، باب الإيمان ، ص: 145

[5]-ابن تيمية وآخرون : الغربة والغرباء ، تحقيق وضبط ودراسة : سليم عبد الهلالي ، ط1، دار الهجرة للنشر والتوزيع ، ص12

وذكر أبي الفرج الأصبهاني في معنى حديثه عن الغربة : (الغَرِيبُ هو المشرّد عن أوطانه) [1] ، وذكر الجاحظ أن الغريب هو:(النائي عن بلده المتنحي عن أهله)[2].

ويعد " الحنين "الذي هو من المشاعر الفطرية اللصيقة بكل نفس ، مقترنا بالغربة فشعور الفرد بالحنين إنّما ينمُّ عن غربة يحسّ بها تجاه أمر معين ، ومنه جاء مفهوم الحنين في اللغة :

حَنَنَ: الْحَنِينُ الشَّوْقُ وَ تَوَقَانُ النَّفْسِ[3]. ومنه :حَنَّ يَحِنُّ حَنِينًا : اسْتَطْرَبَ فهو حَانٌّ كَاسْتَحَنَّ وَتَحَانَّ[4].

والْحَنَانُ : الرحمة[5] ، من أسماء الله الحسنى، ومعناه الرّحيم بعباده لقوله تعالى : ﴿وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا﴾[6].

والْحَانَّةُ: الإبل التي تحنّ في إثر ولدها.

والمُسْتَحَنُّ الذي اسْتَحَنَّهُ الشوق إلى وطنه [7].

والحَنَّانَةُ: التي كان لها زَوْجٌ قَبْلُ فَتَذْكُرُه بالحَنِينِ والتَّحَزُّنِ[8].

---

[1] أبي الفرج الأصبهاني: أدب الغرباء ، المنجد للطباعة والنشر ، دار الكتاب الجديد ، بيروت، لبنان ، 1917، ص9

[2] الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر: الحنين إلى الأوطان ،ط2، دار الرائد العربي للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، (1402ه، 1982)ص:8

[3] الجوهري: أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي:الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، ط4،دار العلم للملايين ، بيروت ،(1407ه ، 1987م)، ص: 2104

[4] الفيروزآبادى :مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب :القاموس المحيط ، تحقيق مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة،(دط)، بيروت، لبنان،(1428ه، 2005م) ص: 1191

[5] الجوهري : المصدر السابق ، ص: 2014

[6] سورة مريم: الاية:13

[7] جمال الدين ابن منظور : لسان العرب، ص: 131

[8] الفيروز آبادي ،القاموس المحيط ،ص:1191

إذن : فالحنين هو البكاء الشديد والطرب الشديد أو الصوت الذي يصدر منهما سواء كان عن حزن أو عن فرح.

اصطلاحا: فالحنين معناه شدة الشوق وتوقان النفس وهو الطرب والتنغيم بصوت أو غير صوت سواء عن حزن أو فرح،حيث يكشف لنا عن مدى معاناة المغترب في غربته.

ويرتبط الحنين ارتباطا وثيقا بالغربة ، ومنه (فإذا كانت الغربة تعني الشقاء والضّياع والألم ، فإن الحنين بكل طاقاته يعني حياة السرور والبهجة والفرح ، لأنه يجسد لحظة أمل يعيشها في ساعة من ليل أو نهار ، وإذا كانت الغربة تعني البعد والنوى ، فإن الحنين يعني القرب والعودة ، تفصل بينهما لحظة زمنية معينة يسبقها الشعور الطاغي بالحنين إلى الوطن والحنين عاطفة سامية أودعها الله في الإنسان منذ الأزل وهي إحساس ، وشوق، ولولاهما لقعد الإنسان عن ماله ، ونكص على نفسه ، ولولاها لما وجدنا مهاجرا صابرا ، أو معتزلا متعففا ، فالحنين إذا دواء ناجح لكل الغرباء فأينما وجدت غريبا قابلك حنينه ، وبقدر مفهوم الغربة يكون الحنين).[1]

فالحنين وليد الغربة وهو الذي يؤرق صاحبه ويعذبه بل ويدمي قلبه حينما يهز مشاعره وأحاسيسه ويبكيه ، فمهما بعد الإنسان عن وطنه قسرا أو طوعا فلا يمكن أن تقلع

[1]- عمرو بوقرورة: الغربة والحنين في الشعر الجزائري الحديث (1962، 1945)، ص:18

جذوره الراسخة في أعماق تربته الأولى والتي تولد الحنين عنده مصحوبا بالألم والحسرة واللوعة.

وفي تشكل الغربة لدى الإنسان وحنينه إلى وطنه ، فالحنين إلى الأوطان طبيعة في النفس البشرية ، وفي البدوية خاصة وهو منسجم مع طبيعة العربي الحساسة في بيئته الصحراوية الواسعة ،ولم يقتصر الحنين على البشر بل شمل الحيوان ، فالإبل تحن إلى أولادها و مرابضها ، ولذلك كان الحنين غريزة في نفس العربي في باديته ، وارتبط الحنين إلى الأوطان بكرامة الإنسان واعتزازه ، وكانت الغربة عن الوطن همًّا شديدا ، ويروى أنه قيل لأعرابي : (ما الغبطة ؟ ، قال : التنقل في البلدان ، والتنحي عن الأوطان).[1]

(والحنين إلى الأوطان انتماء ، وولاء ، وحب وحنين وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم محبا لوطنه مكة كثير الحنين إليها ، إذا ذكرت كانت عيناه تغرورقان بالدموع شوقا وحنينا ، وكان يكره خروجه منها مضطرا ، ويذكرها محبا)[2]، لذلك ليس هناك أقرب وأحب إلى نفس الإنسان من موطنه الذي ضمه بين أحضانه منذ رأى النور أول مرة على ظهر الأرض ، ثم درج على تربته وتنفس الهواء ، وشرب ماءه حتى أصبح جزءا من نفسه لا يمكن أن يستغني عنه أو يفرقه بسهولة بل إن الشوق

[1]- ينظر يحي الجبوري: الحنين والغربة في الشعر العربي ، ص9

[2]- يحي الجبوري: الحنين والغربة في الشعر العربي ، ص11

والحنين تبدأ لواعجه تعصف بالنفس منذ اللحظة الأولى التي تختفي فيه معالم ذلك الوطن عن عين المغترب أو المهاجر .

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى مكانة الوطن في قلوب الناس حين ذكر الدّيار يخبر عن مواقعها في قلوب عباده فقال:﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أُخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ ﴾[1]

لقد سوّى الله سبحانه وتعالى بين قتلهم أنفسهم وبين خروجهم من ديارهم(موطنهم)، فخروج المرء عن موطنه بمثابة خروج روحه عن جسده ، ولا شيء أشقّ على الإنسان من قتل نفسه ، لذلك عقب الله تعالى بقوله ما فَعلوه إِلا قليل منهم.

ومن هنا بمكن حصر معان للغربة أو الاغتراب وهي كما يلي:

1- بمعنى البعد والنوى والفراق والبين عن الوطن والأهل والأحباب.

2- بمعنى الزواج من الأباعد أي غير الأقارب.

3-بمعنى الزهد : وهو ترك الدنيا والانشغال عنها بالتفكير بالآخرة ، مصداقا لقوله عليه الصلاة والسلام : « كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل »[2].

4-بمعنى السفر:

---

[1]- سورة :النساء، الآية: 66

[2]- البخاري: محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي: الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم ، صحيح البخاري،تحقيق محمد زهير بن ناصر الناصر،ط1،دار طوق النجاة للنشر ،(دت) ، ص6416

أ) السّفر المحود وترك الإقامة بدار الهوان [1]: قال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذَلُولًا﴾[2]. وفي الأثر "سافروا تغنموا".

ب)بمعنى الرّحمة: لقوله عليه الصّلاة والسلام:« لَوْ يَعْلَمُ النّاسُ رَحْمَةَ اللهِ لِلْمُسَافِرِ لَأَصْبَحَ النَّاسُ عَلَى ظَهْرِ سَفَرْ»,"وهو ميزان الأخلاق[3] ،فالسّفر يعوّد صاحبه الصّبر، ويجعله يوسّع دائرة معارفه حيث قد يلقى في سفره أهل العلم فيأخذ من وافر علمهم وأدبهم .والمسافر هو البعيد عن وطنه، الغريب عن موطنه، وأهله، طالت مدّة سفره أم قصرت.

والشعور بالغربة أو الاغتراب لازم العربيّ منذ القديم ، حيث اقتضت طبيعة البدوي المتنقلة للبحث عن الكلأ والماء إلى مفارقة مراتعه ليحنّ إليها بعد مدّة ويحسّ بالغربة ما جعل العرب ينظمون شعرهم على ما يختلج في مهجتهم ويحرق أنفاسهم ويبكي قلوبهم فوصفوا من خلاله الدّيار ، ووقفوا على الأطلال والدّمن ، فأنواع الاغتراب التي عانى منها العربي بسبب التّرحال ، أو بسبب اللون ، أو غير ذلك والتي واجهها وفق حجم طاقاته العادية والروحية عوّدته على التمرّد والعصيان بشكل أو بآخر مما يقتضي منه الانعزال والانكفاء عن الذات بل حتى الخنوع والاستسلام،وقد ظلت الغربة تلاحق الإنسان من عصر إلى عصر أين صارت هي ملاذ الإنسان الوحيد

[1] -شهاب الدين محمد بن أحمد الأبشهي : المستطرف في كل فن مستظرف ، ط1 ، دار أصالة للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 2000 م، ص475

[2] - سورة : الملك، الآية: 16

[3] - شهاب الدين محمد الأبشهي : المرجع السابق ، ص: 457

، نظرا لتطوّر العصر ونشوء ما يعرف بالمجتمع الصناعي ، فحين شعر الإنسان أنّه غير قادر على مواكبة ما يجري من أحداث انطوى وانتأى بذاته بعيدا عن المجتمع مفضلا حياة العزلة ليصحّ أن يقال : (أنّ في كلّ إنسان مغتربا)[1]. والشّاعر الفلسطيني واحد من هؤلاء الذين انطووا على أنفسهم ،مسدلين الستار على حياتهم ،منزويين بقضيتهم التي ما عادت تعني أحدا سواهم ، فشعور الفلسطيني بالغربة بات أمرا محسوما ومألوفا فقد عايشها بذاته واختبرها بنفسه وذاق ويلاتها ، وتجرع قسوتها ومرارتها لذلك ليس هناك من هو أصدق تعبيرا عنها منه ، والشعر الفلسطيني يكاد ينحصر بين الشعور بالغربة والحنين إلى الموطن ،إلى الحرية ، إلى السلام والأمن ، وبين الرفض والسخط والثورة ، فتعدّدت تعابيره ورسم للوطن صورا كثيرة وأطلق عليه أسماء عدّة فتارة يسميه بالحبيبة ، وتارة بالأمّ الحنون المحبّة لأبنائها وتقف صامدة أمام كل الأهوال لتحميهم ، وتارة أخرى يعطيها اسما آخر يجد من خلاله ذاته التي ضيعها بضياع هذا الوطن ، فغربة الشّاعر الفلسطيني بعامّة والمثقّف بخاصة باتت معروفة فقد أحسّ بالغربة حين سلب منه وطنه ، وحين حرم من أبسط حقوقه كمواطن في وطنه(فعانى من اغترابات شتى واتسمت ردود فعله بأشكال شتى تراوحت بين الانسحاب من الواقع إلى هامش الحياة ، أو الرضوخ للنظام القائم والاندماج في مؤسساته ، أو التمرد بنوعيه : الفردي ، والثوري ، الجماعي أو الهجرة إلى الخارج

[1]- محمد راضي جعفر: الاغتراب في الشعر العراقي المعاصر مرحلة الرواد ، دراسة منشورات اتحاد الكتاب العرب ، 1999م، ص6

بحثا عن فرص أفضل في الحياة).[1] واتسمت غربته بالشعور بالتهميش في كل نواحي الحياة في : الثقافة حين حرم من تعلمه باللغة العربية التي تشكل انتمائه بعد فرض التدريس باللغة العبرية وبعد أن لاحظ آثارها بنفسه حيث ذكر الكاتب الفلسطيني " فوزي الأسمر" مبينا الوضع الثقافي لعرب فلسطين المحتلة قائلا: (بينما كنت جالسا أتناول غدائي في أحد المطاعم بتل أبيب استمعت بالصدفة إلى مكالمة تليفونية ، كان المتكلم شابا عربيا من إحدى قرى المثلث ، علمت فيما بعد أنها أم الفحم).[2]

(ألو ، فاعد هبوعيل؟ * أعطني من فضلك السيد قصاب من الدائرة العربية ،ألو " المحادثة كلها بالعبرية" سيد قصاب ؟ مرحبا ، أحمد يتكلم ، هل تسلمت رسالتي ؟ أنا متأسف جدا ، لقد كتبتها بالعبرية وطلبت من الأخ قاسم ترجمتها بالعربية ، متأسف ، لقد أنهيت مدرسة عبرية ثانوية ولا أعرف الكتابة لذا طلبت منه ترجمتها).[3]

هذا المقطع يعكس بصورة واضحة وجلية ما يعاني منه عرب الأرض المحتلة ، فالمحتلّ يعرف أن اللغة العربية هي سلاح المثقّف الفلسطيني في الدّفاع عن نفسه وفي فضح سياسته الاستعمارية ، فمتى أتقن الشعب لغته كان سلاحه قويّا وضاربا في وجه العدو، لذلك فسياسة إسرائيل لتغريب الفلسطيني عن واقعه ، وتاريخه، ودينه اختارت

---

[1]- محمد راضي جعفر: الاغتراب في الشعر العراقي المعاصر مرحلة الرواد ، ص: 6

[2]- فوزي الأسمر«هذا العالم» (هولام هزه) ، مجلة أسبوعية تصدر بالعبرية ، العدد 39(حزيران 1967)، نقلا عن غسان كنفاني ، الأدب المقاوم تحت الاحتلال(1962ــ 1948)، ط1، دار النشر: مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، ص: 17

*هبوعيل : لجنة العمال

[3]- غسان كنفاني: المرجع السابق ، ص17

أن تكون موجهة نحو المثقف ، نحو الطالب ، فحين تفتكّ منه لغته العربية تكون قد إفتكّت منه سيادته وسلطته ، ولكن الكاتب " فوزي الأسمر" يمضي كلامه هنا مبديا غضبه من المثقف الفلسطيني ، ويضع اللوم على رضوخه لسياسة إسرائيل وعدم محاولته التعرف على لغته التي هي دليل عروبته وهوية انتمائه قائلا:(مكالمة هاتفية تحمل في طياتها الكثير، وأنا هنا لا أضع مسؤولية عدم تعلّم العربية ، لغة أم أحمد على عاتق أحمد وحده بل على عاتق أحمد نفسه ألا يخجل من نفسه).[1]فالكاتب متذمّر وساخط من المتكلم "أحمد" الذي لم يكلّف نفسه عناء تعلّم لغته ، فهو الوحيد المسؤول عمّا يحدث له ، ذلك أن سياسة المحتل معروفة وهي جعل لغته غريبة عنه ، لكنّه لو أراد تعلمها لتعلّمها ، يقول مضيفا : (أنّنا لا ننكر أن هنالك محاولة من السلطة لبلبلة الجيل العربي الناهض ، ولكن أين المسؤولية التي تقع على عاتقه هو؟ إنّي أتوجه إلى أحمد هذا وكل أحمد آخر في نفس الحالة أن يسارعوا في تعلم لغة أمهم ... وإلا ...؟[2].

نقاط تستدعي الوقوف عندها ، إنّه الخوف من أن يقع ما خططت له سلطات الاحتلال ، وقد عرض غسان كنفاني إعلانا فاضحا يشكل اعترافا مثيرا للدهشة ، في هذا النطاق،على لسان إسرائيلي مثقّف خلال مناقشة مفتوحة مسجّلة .يقول: (أعتقد أن الكيان القومي فوق كل اعتبار، حتى فوق الاعتبارات الخلقية ، إن وجود أقلّية عربية في إسرائيل يشكل أكبر خطر عليها إذا لم يكن الآن وفي هذا المستقبل ففي المستقبل

[1]- فوزي الأسمر : هذا العالم ، نقلا عن غسان كنفاني ، الأدب المقاوم تحت الاحتلال(1962ـ 1948) ،ص:17

[2]- فوزي الأسمر : المرجع السابق ، نقلا عن : غسان كنفاني : المرجع السابق ، ص17

البعيد ... علينا أن نقصر خطواتهم ... وكل عربي ينهي دراسته الثانوية لا نعطيه عملا ...، حتى ييأس ويفهم أنه لا مكان له في هذه البلاد وليبحث عن بلاد أخرى ،علينا أن نقنع العرب بعدم سماع الراديو العربي، علينا أن نقطعهم عن الثقافة العربية ونضعهم تحت تأثير الثقافة اليهودية)[1] ، فهذا ليس مجرد تصور نظري إنّما بات واقعا معبّرا عن حقيقة صارت مطبقة رسميّا وممارسة بشكل يومي في حياة المواطن الفلسطيني (فالمستوى التعليمي في المدارس العربية أضعف بكثير منه في المدارس اليهودية ، وكذلك فصل المعلّمين الأكفاء وتعيين معلمين أنهوا المدارس الابتدائية فقط مكانهم)[2]، فهذه هي سياسة المحتل الإسرائيلي والتي أضحت واضحة وجلية للعيان ،إنّها سياسة التّجهيل ، فحين يجهل الفلسطيني لغته ينسى دينه ويجهل إسلامه وقرآنه ، ينسى أنّه عربي، وما إن يحدث ذلك تكون معالم شخصيته الوطنية قد طمست لذلك كانت الضّربة موجهة نحو المثقّف فهي تود خلق جيل غريب عن دينه ولغته ، بل دافعها تغريبه في وطنه ثم تدفعه للخروج عن إلى بلد آخر وتغريبه عن وطنه الذي بات مسلوب حق العيش فيه بكرامة وكمواطن له حقوق وواجبات، ولكن وبالرغم من كلِّ هذا فإن فلسطينّ قد أنجبت أدباء عبّروا عن واقعهم وصوّروا الظلم الذي حاق بهم ووصفوا غربتهم ومعاناتهم ، ورسموا نضالهم على صفحات تاريخ فلسطين بلغتهم الأم العربية بغضّ النّظر عن قلّتهم أو كثرتهم على مرّ تاريخ فلسطين ، فقد ذهب " محمد

[1] غسان كنفاني ، الأدب المقاوم تحت الاحتلال(1962ــ 1948) ، ص: 17، ص:18

[2] المرجع السابق ص19

سليم رشدان" في حديثه عن شعراء فلسطين وعن الشعر الفلسطيني (المغامرات الشعرية) قائلا:(وحين نتوغل في تاريخها "فلسطين" نجد أنّها لم

تنجب عبر تطاول العصورغير آحاد من الأفذاذ الذين كانوا يلتمعون بين حين وآخر... ونَدُرَ أن نعاصر منهم اثنان).[1]

في حين بررت سلمى الخضرا الجيوسي ذلك بقولها : (أن فلسطين قد أنجبت العديد من المواهب الفذة ، وقد يكمن السّر في بطء الحركة الثقافية في فلسطين في أنّها ربّما كانت أقلّ حظّا من بقية الولايات العربية " كما كانت الأقطار العربية تدعى آنذاك" في مقدار التعليم الذي أتاحته لها الدول ، فقد تأسّست أول مدرسة متوسطة في القدس عام 1887)[2].

ومما نخلص إليه من وراء اغتراب المثقف الفلسطيني أنه يتصل بسببين جوهريين هما: أنّ الأول: مرتبط بقضيّة الحرّية وما يتعلّق بها من مداخلات السلطة السياسية والاجتماعية، والثاني : متعلق بصدمة المثقف نظرا لتعثر المشروع النهوضي القومي.

---

[1]- سليم رشدان : الأدب في فلسطين ، الرسالة ، 13آب / أغسطس ، نقلا عن : سلمى الخضرا الجيوسي :الاتجاهات والحركات في الشعر العربي الحديث ، ط1، دار نشر : مركز الوحدة العربية ، بيروت ،لبنان ، أيار/ مايو2001م ، ص: 56، 57

[2]- سلمى الخضرا الجيوسي :المرجع السابق ، ص: 57

الفصل الأول

الغربة والحنين في الشعر الفلسطيني

أولا: أنواع الغربة وأسبابها ومظاهرها:

- **أنواع الغربة**

- **أسباب الغربة**

- **مظاهر الغربة**

ثانيا : موضوعات شعر الغربة والحنين في الشعر الفلسطيني:

- **بعض شعراء فلسطين ومواضيع الغربة في شعرهم.**

الفصل الأول

الغربة والحنين في الشعر الفلسطين

أولا: أنواع الغربة وأسبابها ومظاهرها:

1- أنواع الغربة

2- أسباب الغربة

3 - مظاهر الغربة

ثانيا : موضوعات شعر الغربة والحنين في الشعر الفلسطيني:

- بعض شعراء فلسطين ومواضيع الغربة في شعرهم.

أولا: أنواع الغربة وأسبابها ومظاهرها :

1)أنواعها: تنقسم الغربة في الشعر بحسب معانيها التي وردت بها إلى ما يمكن أن نسميه بالغربة المكانية والغربة الزمانية ، والغربة الروحية .

أ)الغربة المكانية : وهي (ذاك المعنى المباشر والملاصق لاستخدام الكلمة ، وهو الإحساس الذي يشعر به الإنسان في بعده عن وطنه ، هذا النوع من الغربة نراه ممثّلا في الشعراء الذين هجروا أراضيهم وديارهم وانتقلوا إلى أرض لم يألفوها فعاشوا فيها غرباء ، يعانون ألم الفراق والشّوق والحنين إلى أوطانهم التي لا تفارق صورتها خيالهم)[1].

فعندما يهاجر المرء لبلد آخر مجبرا ليبحث عن رزق العيش ، أو يهرب من ماضي أليم سكنه في وطنه تتراءى له أن هذه الهجرة هي الكفيلة بحل مشاكله وأنه سيمارس حياة جديدة ، ولكنّه من تطأ قدمه أرض الغربة يصدم بالواقع ، فإن كان قد عاش ذلاّ في وطنه فإنه سيعيش ذلّين في وطن الغربة ،وهو إن كان في بلاده قد عبّر ولو بشكل من الأشكال عن حرّيته فإنه في بلاد الغربة لا يحقّ له (ممارسة فكره بحرية تامة، أو الكشف عن ثقافته علمية كانت أو اجتماعية أو سياسية فهو لا يتحدث عنها بشكل علني وظاهر،وإن اصطحبته الشجاعة والجرأة في الحديث فإن حالة من الخوف والحذر تظلّ تصاحبه)[2]،

[1]- أشرف علي دعدور : الغربة في الشعر الأندلسي عقب سقوط الخلافة ، ط1، دار نهضة الشروق للطباعة والنشر ، القاهرة ، 2002 م، ص: 22

[2]- طالب ياسين: الاغتراب تحليل اجتماعي ونفسي لأحوال المغتربين وأوضاعهم ، ط1،(1416ه ، 1992م)، عمان، ص: 141

وبالتالي فإنه يضطرّ لأن ينزوي في دائرة الكبت والحرمان الثقافي وينغلق على ذاته.

والشعور بالغربة والتعبير عن ألم البعد النّاجم عنها من خصوصيّات الشاعر المبدع الذي عايش معنى الغربة ، فالإنسان العادي وإن عبّر عنها – عن غربته – وعن وحدته فإنه لا يجيد التعبير عنها على النحو الذي يرصد لنا فيه معاناته ويصوّرها لنا في قالب فنّي يعكس آلامه ، عكس الشاعر الذي تتولى لغته كل ذلك ، لذلك ارتبط الشعور بالغربة بنفس الإنسان على مرّ التاريخ في كل زمان ومكان دون أن ينحصر على شعب بعينه كون البشر جميعا يخضعون لعامل الرّحيل عن الوطن والأهل لذلك نجده –الشاعر المتغرّب– دائم الشوق إليهم ، ويتوق نفسه لهفة للقائهم ، وهذا لا يكون بصفة عامة – الرحيل والتغرّب – فمعظم الشعراء رحلوا عن ديارهم وأوطانهم بإرادتهم، ورغم ذلك عبّروا عن هذا النوع من الغربة ، وهذا الإحساس المشتعل بلهفة الرجوع للوطن ولقاء الأحبة.

لذلك فقد تعددت دوافعهم في الهجرة (إمّا بحثا عن المال أو الشهرة أو مزيد من الرفاهية)[1]، ولكن بالعودة إلى شعراء فلسطين سنلحظ الفارق ونجد الاختلاف البيّن في دافع الهجرة ، فالقول أنهم اضطروا للرحيل عن وطنهم تاركين وراءهم أراضيهم وأحلامهم وذكرياتهم وأهليهم له أنواعه كذلك ، فمنهم من هجر قسرا ومنهم من فرّ بحثا عن الأمن والاستقرار ليعيش مع أبنائه في سلام، فغربته أيا كانت أسبابها ودوافعها فهي لا تخلوا من كونها تشكل عذابا حقيقيا يعاني منه هذا الشاعر وخطرا بات يهدّد من لم يحن عليه الدّور بعد للتهجير، فحين يجد هذا الشاعر– الفلسطيني – نفسه فجأة في بلد غير بلده ، وأناس

[1]- أشرف علي دعدور:الغربة في الشعر الأندلسي عقب سقوط الخلافة ، ص:23

غير أناسه وأهل غير أهله ، ورفاق وجيران غير رفاقه وجيرانه، حين يجد نفسه دون أخ ،ودون معين يفضي إليه أوجاعه ويقاسمه أفراحه و مرّ أحزانه، يعي أنه غريب وأنّ أي حركة قد تعرض حياته وحياة من معه لخطر كبير، فينطوي على نفسه ولا يجد بدّا للخلاص من غربته إلا تذكّر أحبائه وأصحابه وأهله بقلب متأسي على فراقهم.

ب . الغربة الزمانية: وهي:(تلك الحالة النفسية التي تصيب الإنسان داخل وطنه في مرحلة زمنية غير مواتية تجعله يشعر بالغربة بين أهله وذويه في مجتمع قد نشأ فيه)[1] ، فهذه الغربة هي أقسى غربة يمكن أن يعيشها الإنسان ، فيأتي حينها الألم من الأهل والأقارب ومن المجتمع ككل والسبب أن هذا الإنسان طالب بحقه منذ البداية فنبذ ، والفلسطيني حين طالب بحقه بل بأبسط من حقه في أن تكون له حريته في بلاده همّش وغرّب في وطنه، فعندما فقد الاستقرار في بلده وتخلخلت القيم في مجتمعه – ظهور جواسيس من أبناء بلدته– ، وتدهورت الأوضاع السياسية القائمة جرّاء الاحتلال أحسّ هذا الشاعر الفلسطيني بغربة من نوع خاص حين سلبت منه كلمته التي يعبّر بها، وفرضت عليه قوانين جائرة من غريب محتل شكّل لنفسه وطنا داخل هذا الوطن وعامل سكانه تماما كما عومل الهنود الحمر من قبل ، هذا ما جعل شاعرنا الفلسطيني يعبّر عن سخطه وتذمّره من المستعمر في شتى المجالات والميادين ، رافعا سلاح الرفض والتحدي له بصوت أقوى يغذيه حبّ الوطن ، لا يرضخ لإرادة وسيطرة المحتل الغاصب، فحسب الفلسطيني أنه غريب على أرضه في الحق والكلمة، وفي السفر والتنقل، لأن إدارة المحتل

[1]- أشرف علي دعدور :الغربة في الشعر الأندلسي عقب سقوط الخلافة ، ص: 23

الإسرائيلي فرضت ذلك على بعضهم، وفي ذلك يوضح محمود درويش واصفا معاناته ضامّا معاناة سميح القاسم ، وتوفيق زياد وسالم جبران قائلا: (أنا مثلا لا أستطيع مغادرة حيفا منذ أربع سنوات ، وسميح القاسم أمر بملازمة بيته منذ غروب الشمس حتى شروقها لمدة ثلاث أشهر متتالية ، وتوفيق زياد وسالم جبران محدد الإقامة في منطقة الجليل)[1] ،أما عن السجن فكان لحق كلمة قالها:(ثم هناك السجن رغم أن السلطة لم تجرؤ حتى الآن ولمتطلبات الدعاية على محاكمة شاعر لأنه كتب قصيدة ... ولكنني حوكمت لأنني سافرت إلى القدس لإلقاء قصيدة وسجنت شهرين)[2].

ت ـ الغربة الروحية: ومفهوم هذه الغربة (يرتبط أساسا بالدين الذي يعمّق الشعور بأن هذه الحياة التي نحياها ، وهذه الأرض التي نعيش عليها ليست هي الروح الخالدة ، ولا هذه الدنيا باقية،لذلك فهو يعيش فيها كأنه غريب وينتظر هذا اليوم الذي تعود فيه الروح إلى عالمها ، وهذا المفهوم نجده بلا شك أكثر عمقا ووضوحا لدى الشعراء : زهاد أو متصوفة لم يشعروا بغربتهم على المستوى المكاني أو الزماني فحسب بل استقرّوا بغربتهم في هذا الوجود وغربة أرواحهم في أجسادهم على نحو دفعهم للتطلع إلى ما وراء هذا الوجود وانتظار ساعة الخلاص، خلاص الرّوح من الجسد ، ومن العالم الذي يتصل به وتشعر بغربتها فيه لتعود إلى عالمها الحقيقي)[3]،وعلى اعتبار أن هذا النوع من الغربة

---

[1]- محمود درويش:شيء عن الوطن ، ط1، دار العودة ، بيروت ، 1971، ص:266 نقلا رقية زيدان:أثر الفكر اليساري في الشعر الفلسطيني، شعر درويش ، سميح القاسم ، توفيق زياد، ط1، دار الهدى للطباعة والنشر ، حيفا ، 2009، ص:181

[2]-المرجع السابق ، ص:266

[3]- أشرف علي دعدور :الغربة في الشعر الأندلسي عقب سقوط الخلافة ،ص24

مرتبط بالدين كما سبق الإشارة إليه ، فإنه يجب الوقوف على المقصود بالدّين لا نعني الدين الإسلامي فقط بل هي موجودة في كل الأديان السماوية السابقة له وتلقى هذه المفاهيم أهمية كبيرة وقبولا أكثر من الناس (في الفترات الحرجة والأوقات العصيبة حين يضيع الأمان وتتأزم الأمور، فيلجأ الإنسان إلى ربّه، ويلوذ بالدّين لعلّه يجد فيه ما يخرجه من أزمته، أو يهوّن عليه مصائبه)[1]، إضافة إلى ذلك فإن الغربة الروحية قد اقترنت كذلك بعصرنا الحديث(فما تعرض إليه الإنسان في شرقنا العربي من همجية الحضارة الناتجة عن الاستعمار الحديث الذي فرض سيطرته عليه ومارس استبداده فكانت نتيجته تلك الهزيمة التي لحقت به جراء الهزّات العنيفة، الحاصلة في فكره وحياته الاجتماعية ككل)[2].

2) أسباب الغربة: (ما إن يسيطر الحزن على السرور ويتحول الهناء إلى كدر، في دنيا الشعر حتى تبدأ خيوط الغربة في نسيج عباءتها ، وغالبا ما تكون هذه الخيوط نابعة من علاقة الشاعر بعوالمه الباطنية ، وبالظواهر الاجتماعية والحياة، فظاهرة الغربة تنشأ عند التأزم النفسي ، وفي الإحساس والشعور باللاأمن ، والفوضى والاضطراب وعدم التوافق مع محيط الحياة بصفة عامة)[3]، لذلك ومن هنا جاءت غربة الفلسطيني غربة نفسية ، اجتماعية ، مكانية وكلها ارتبطت بواقعه فغربة الفلسطيني عامة والشاعر خاصة تقوم على مجموعة من الأسباب منها:

---

[1]- أشرف علي دعدور :الغربة في الشعر الأندلسي عقب سقوط الخلافة ، ص24

[2]- أمين صالح عبد ربه : الغربة والحنين للوطن في الشعر الفلسطيني عقب المأساة ، رسالة دكتوراه ،جامعة الأزهر،(1397هـ ، 1977م) ، ص : 93

[3]-حمة دحماني : ظاهرة الغربة في شعر مفدي زكريا ، رسالة ماجيستر، جامعة منتوري قسنطينة ،(2005،2006)، ص: 33، 34

أ- **التعذيب والاعتقال:** لقد تعرض الفلسطيني لأنواع الاضطهاد من سجن واعتقال وتعذيب ، بل ووصل حد طرده من الوظيفة لتمسكه بوطنه وولائه له ،ومورست عليه كل أساليب التّعذيب ما شكل لديه غربة ذاتية (تمتزج بين الألم والتعذيب الجسدي وبين الغربة النفسية التي بلغت معنى التغريب وهو منسي يؤدي ضريبة الاعتقال)[1]، وكان لهذه الممارسات اللاإنسانية تأثير كبير على الصّحة الجسمية والنّفسية للأسرى الفلسطينيين فالتّعذيب الذي تعرض له الإنسان الفلسطيني كان بمثابة مأساة حقيقية مدمّرة لكيانه ، لذلك (فالتّعذيب هو محاولة تدمير شامل سواء كان جسديا أو نفسيا أو جنسيا من قبل شخص أو سلطة بهدف انتزاع معلومات و/أو تدمير شخصية المعتقل والتسبب في معاناته لإرهابه و/أو إرهاب الآخرين بدوافع سياسية و/ أو أمنية أو شخصية انتقامية أو تعبير عن سلوك مرضي للتّعذيب نفسه)[2]، والحديث عن تجربة الاعتقال والتّعذيب اللذان ذاق ويلاتهما هذا الفلسطيني البائس وهو متعدد المراحل حيث يبدأ من الاعتقال ذاته وفي أحيان كثيرة يكون من قبل الاعتقال عن طريق المضايقات التي يتعرض لها باستمرار كمنعه من مغادرة بلدته، ومنعه من الخروج أو التعليم ،ويهدد بالإبعاد إن استمر بالعمل السياسي ، تماما مثلما حدث مع محمود درويش حين ألقي عليه القبض بعد إلقائه قصيدة في القدس، فسجن مدة شهرين ،وغيره ممّن تعرّضوا للاعتقال أو ما شابه ذلك من أنواع التعذيب،وعندما يتم اعتقال الأسير وإيصاله للسّجن يتعرّض السّجين لأقسى أنواع التعذيب

[1]- سالم المعوش : شعر السجون في الأدب العربي الحديث والمعاصر، ط1، دار النهضة العربية ، بيروت ، لبنان ، (1424،، 2003)، ، ص: 543

[2]-عبد الناصر أبو قاعود : تجربة التعذيب لدى الأسرى الفلسطينيين وعلاقتها بالتفكير الأخلاقي ، رسالة ماجيستر، غزة، (1429هـ، 2008 م)، ص: 13

الممكنة ،حيث (يشرف على تنفيذ أساليب التعذيب أطقم الهندسة البشرية المتخصصة في إسرائيل والتي تأخذ بعين الاعتبار ثغرات الأسير وتركيبته النفسية والانفعالية وتقاليده ، ودرجة تدينه)[1] .

وعن رصد المعاناة التي يتعرض لها الفلسطيني بعد وصوله للمعتقل الإسرائيلي ، يقول محمود درويش: (ثم يدخلونك إلى غرفة أخرى تجد ضابطا وامرأة عجوزا ،يسألك أحد الضّباط إن كنت تتقن اللغة العبرية ، ثم يتلوا لائحة الاتّهام أنت متّهم بالعمل على دولة إسرائيل ، تسأل : تقصد الدولة أم البطّيخة ؟ ،تقول تلك المرأة القبيحة : احترم المحكمة ، تعلن دهشتك : أيّة محكمة ؟ فيأتيك صوت قادم من مستنقع : هذه محكمة وأنا قاضية . عندها تفهم أنهم احترموك ونقلوا المحكمة إلى السجن من أجلك . ولكنك ترفض تكريمهم : كلاّ سيدتي – لا هذا المكان محكمة ولا أنت قاضية ، هذا سجن وأنت سجّانة – تنتهي الجلسة بتحديد مدة التوقيف)[2] .

ويذكر معين بسيسو مأساة المعتقلين: (ثلاثة أشهر لم نر فيها لا جريدة ولا كتابا ، أحد المعتقلين لتخفيف هول العذاب ، طلب القرآن فأحضروا له التوراة؟ قالوا : أن الزنزانة نجسة والقرآن لا يدخل الزنزانة هكذا فرضوا علينا نحن المعتقلين الفلسطينيين في السجن الحربي آلهة إسرائيل)[3] .

---

[1]- عبد الناصر أبو قاعود : تجربة التعذيب لدى الأسرى الفلسطينيين وعلاقتها بالتفكير الأخلاقي ، ص:30

[2] -محمود درويش : يوميات الحزن العادي ، ط 5، (دت) ،ص: 51

[3]- معين بسيسوا: مدونة الحب في غرفة الإنعاش دفاتر فلسطينية، ط2، دار الفارابي للطباعة والنشر 1978، بيروت، ص: 15

(ولقد كان على الأسير أن يتضوّر جوعا بل يموت من أجل أن يحصل على قلم أو كتاب وأن يرتقي بمستواه الثقافي ليعيش بالتالي مراحل قضيّة شعبه ووطنه ويسهم بإيجابية في تحقيق الأهداف الفلسطينية المنشودة)[1]، (فكانت حياة الأسرى الفلسطينيين في زنازين المعتقلات لا تطاق وكان السّجان يتحكّم في ساعات النّوم ، وهيئة الجلوس في الزنزانة وتناول الطعام والشراب ، وحتى الحديث بين أسيرين كان ممنوعا واستمر ذلك من بداية الاحتلال لفلسطين في عام 1948 حتى منتصف السبعينيات من القرن 20)[2].

وهنا يمكن القول أن أوضاع الأسرى والمعتقلين في سجون الاحتلال أحد أكبر مظاهر المعاناة الفلسطينية(فلم تتوقف حملات الاعتقال حتى بعد وقت انتفاضة الأقصى وتزايد عدد المعتقلين ليصل في نهاية2007 ما مجموعه 11550 معتقلا منهم 10485 من الضفة الغربية و860 من قطاع غزة و140 من فلسطين المحتلة سنة 1948، وعشرات المعتقلين العرب)[3] .

ب . التشريد والنفي: ومن أسباب الغربة " التشريد والنفي" والمقصود بهما (المطاردة والإبعاد، فإن الإنسان المطارد لابدّ وأن يغترب بعيدا عن أهله وأوطانه)[4]، ومن أبرز الشعراء الذين عانوا التشريد والنفي هم " محمود درويش ،سميح القاسم ، وعبد الرحيم

---

[1]- معاذ محمد عبد الهادي الحنفي:البنية الإيقاعية في الشعر الفلسطيني المعاصر شعر الأسرى أنموذجا، رسالة ماجيستر ، غزة،(1427هـ، 2006 م)، ص:45

[2]-المرجع السابق ، ص8

[3]- محسن محمد صالح : القضية الفلسطينية خلفياتها التاريخية وتطوراتها المعاصرة ، مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات ، بيروت ، لبنان (1433 هـ، 2012)ص: 133

[4]-أمين صالح عبد ربه : الغربة والحنين للوطن في الشعر الفلسطيني بعد المأساة ، ص104

محمود" وغيرهم ممن أبعدوا عن مواطنهم (وأثبتوا أن الشاعر الحق ، هو الذي يعبّر عن وجدان أمته ويكافح من أجل حريتها وكرامتها فالجهاد بالكلمة لا يقل عن الجهاد بالسيف)[1]،وقد عانى معظم شعراء فلسطين من قسوة المنفى وعرفوا تجربته ، وقذفوا خارج وطنهم فكان هذا النفي الذي تعرّضوا له بمثابة سجن حقيقي إلا أنه بصورة أخرى (شعر هؤلاء بوطأته ، فكانت الغربة وحرمانهم من العيش الهانئ وسط أهاليهم وفي قراهم ومدنهم تملآن جوانب كثيرة من دواوينهم)[2]، ولم يقتصر النفي والتشريد الذي تعرّض له الشعب الفلسطيني ـ الشاعر الفلسطيني ـ على البعد عن الوطن فقد عانى الفلسطيني من ذلك في أرضه حين منع من دخولها ، وقد ذكر محمود درويش ذلك وصور معاناة الفلسطينيين واشتياقهم لأرضهم وهم داخلها إذ يقول: (أسأل ما فعلت بنا الأرض ؟ قتلت جدّي من القهر والانتظار وشيّبت أبي من الكدح والبؤس وأخذتني إلى الوعي المبكّر بالظلم)[3]، لقد كان تشرّد شاعرنا من أرضه سببا في وعيه ونضوجه المبكّرين بمأساة وطنه، وشعوره بالغربة التي يحياها هو ومن مثله من المشرّدين الفلسطينيين ، ويضيف محمود درويش موضحا هذا التشرّد يقول: (كان جدّي ملاّكا موفور الحال، وحين حدث ما حدث وصار هو "حاضرا غائبا" كان يقضي أيّامه أمام مكتب الحاكم العسكري في انتظار تصريح سفر إلى مدينة عكا لا لشيء إلا ليرى أرضه من خلال نافذة الباص)، فالحال الذي آل إليها هذا الجدّ ـ وكل جدّ فلسطيني ـ من تشريد وحرمان من أن تطأ قدمه أرضه التي غرس

[1]- أمين صالح عبد ربه : الغربة والحنين للوطن في الشعر الفلسطيني بعد المأساة ، ص104

[2]- سالم المعوش: شعر السجون في الأدب العربي الحديث والمعاصر، ص: 521

[3]-محمود درويش : يوميات الحزن العادي ،ص:15

على تربتها ذكرياته مع أهله ، وسقاها ببركة أجداده الذين أورثوه هذه الأرض ، جعلته يعيش حالة اغتراب شديدة ، فهو لم يكن ليفكّر ولو للحظة أنها ستسلب منه، بل أن يصير من مالك أرضه إلى غريب عنها، وأنه سيمنع من الدخول إليها ، ليصبح الآن مكتفيا برؤيتها من نافذة الباص ويتشبّث بأمل الذكريات التي تمرّ سريعا بمرور هذا الباص ، فهو تماما كالطفل الذي يعيش على أنقاض حكايات وصور أو نصف صور ترسم جزءا من ملامح أمّه التي فقدها فجأة ، أو ترسم له صورتها في شكل طيف عابر ، ما يلبث أن يتشكّل في ذهنه حتى يمحى من جديد.

3) مظاهر الغربة: للغربة أبعاد ومظاهر ذكرها علماء النّفس والاجتماع ،وقد أجملت في خمسة مظاهر أساسية هي :العجز، اللامعنى، اللامعيارية ، الغربة الاجتماعية ، والاغتراب عن الذات.

أ- **العجز power lessness:** فأمّا العجز فهو (شعور الفرد بأن لا حول ولا قوة ، ولا يستطيع التأثير في المواقف الاجتماعية التي يواجهها ،ويعجز عن السيطرة على تصرفاته وأفعاله ورغباته ، ولا يستطيع أن يقرر مصيره ، ومن ثم يعجز عن تحقيق ذاته وأن يشعر بحالة من الاستسلام والخنوع)[1]، والعجز وفقدان القدرة وهو(توقع الفرد بأنّه لا يملك القدرة على التحكم وممارسة الضّبط،لأن الأشياء حوله تسيطر عليها ظروف خارجية أقوى منه)[2] ،(ويتولّد لديه شعور بالعجز والإحباط وخيبة الأمل في إمكانيّة

[1]- عبد اللطيف محمد خليفة : دراسات في سيكولوجية الاغتراب ، ص:36

[2] المرجع السابق ، ص: 36

التأثير)[1] ، وهذا تماما ما كان يشعر به الفلسطيني حيث أصيب بحالة من العجز في ردّ المظالم وبات محتوما عليه تحمل ما يجري حوله فإرادته أضحت مقيدة بأغلال وأصفاد عليه من الظلم والقهر وقوانين المحتل ، فلا هو قادر على أن يحرّر ذاته السّجينة ولا قادر على أن يغيّر شيئا من واقع مجتمعه فهو في حالة عجز تام وحقيقي.

ب ـ اللامعنى :meanenglesness: وأمّا اللامعنى أو فقدان المعنى هو(توقع الفرد أنه لن يستطيع التنبؤ بدرجة عالية من الكفاءة المستقبلية للسلوك كما يقول "سيمان " فالفرد يغترب عندما لا يكون واضحا لديه ما يجب عليه أن يؤمن به ،أو يثق فيه ، ولذلك يرى الإنسان المغترب أن الحياة لا معنى لها لأنها تسير وفق منطق غير مفهوم وغير معقول ، ومن ثم يعيش حياة التفاهة واللامبالاة)[2] ، والفلسطيني باعتباره ألف المحن والعذاب وكل أشكال الخراب والدّمار تلتف من حوله فإنه أصبح يتعامل مع واقعه باللامبالاة فهو لا يدري ما سيحصل غدا أإنعتاق وسلام أم مزيد من الدّماء والدّمار ؟ لذلك فقد بات الأمر كلّه عاديّا بالنسبة له يعيش كما يعيش كل غريب في بلده لا يستطيع الوثوق بأحد ولا أن يؤمن بنزاهة أحد وكلّه من جراء المحن والنّكبات والتي مرّت عليه ومن آثار الوعود الكاذبة تحت مسمّيات خادعة والذي سقط ضحيتها حين أمل خيرا منها ولكنها سياسة المستعمر تبدوا ظاهريا في مصلحته أما باطنيا فإنها تحوي كل أشكال

[1]-أحمد النكلاوي :الاغتراب في المجتمع المصري المعاصر ، دار الثقافة العربية ، القاهرة ، 1989،ص:121، نقلا عن عبد اللطيف محمد خليفة : دراسات في سيكولوجية الاغتراب ، ص: 37

[2]- عبد اللطيف محمد خليفة : المرجع السابق، ص 37

الخراب والمعاملات اللاإنسانية بدءا من نكبة 1948، وحرب 1973 واتفاقيات أوسلو الخادعة 1993وما تبعها .

ت ـ اللامعيارية: normlesness: وتسمى الأنوميا وهي (حالة تصيب المجتمع ، أي حالة انهيار المعايير التي تنظم السلوك وتوجهه)[1] ، وهي كما يقول "سيمان" (الحالة التي يتوقع فيها الفرد بدرجة كبيرة أن أشكال السلوك التي أصبحت مرفوضة اجتماعيا غدت مقبولة تجاه أية أهداف محددة ، أي أن الأشياء لم يعد لها أي ضوابط معيارية ، ما كان خطأ أصبح صوابا ، وما كان صوابا أصبح ينظر إليه باعتباره خطأ من منطلق إضفاء صبغة الشرعية على المصلحة الذاتية للفرد وحجبها عن المعايير والقواعد، وقوانين المجتمع)[2].

ث . العزلة الاجتماعية : social isolation: (ويراد بها شعور الفرد بالوحدة والفراغ النفسي والافتقاد إلى الأمن والعلاقات الاجتماعية الحميمة ، والبعد عن الآخرين حتى إن وجد بينهم ، ويصاحب العزلة الشعور بالرفض الاجتماعي والانعزال عن الأهداف الثقافية للمجتمع ، والانفصال بين أهداف الفرد وبين قيم المجتمع ومعاييره)[3] وغالبا ما يستخدم هذا المصطلح عند الحديث عن الاغتراب (في وصف وتحليل دور المفكر أو المثقف الذي يغلب عليه الشعور بالتجرد وعدم الاندماج النفسي والفكري بالمعايير الشعبية في المجتمع وهؤلاء الذين يحيون حياة عزلة واغتراب لا يرون قيمة

---

[1] عبد اللطيف محمد خليفة: دراسات في سيكولوجية الاغتراب ص: 37

[2] – أحمد النكلاوي :الاغتراب في المجتمع المصري المعاصر ، ص: 105 نقلا عن المرجع السابق ، ص: 38

[3] عبد اللطيف محمد خليفة: المرجع السابق ،ص:39

كبيرة في كثير من الأهداف والمفاهيم التي يثمنها أفراد المجتمع)[1] ، وهذا ما نلحظه بكثرة عند شعرائنا المعاصرين الذين آثروا حياة العزلة .

ج ـ الاغتراب عن الذات self– estrangement: (ويراد به قدرة الفرد على التواصل مع نفسه ، وشعوره بالانفصال عمّا يرغب في أن يكون عليه، حيث تسير حياة الفرد بلا هدف ، ويشعر بالاغتراب عندما لا يستطيع التحكم بأفعاله ويكون سلبيا عندما يستسلم لأفعاله ونتائجها ، ويشعر أن لا معنى لحياته كما يشعر باغترابه عن ذاته)[2]، ويرى يحي الجبوري أن مفهوم الاغتراب في الشخصية يتحدد في (عدم التكيف وعدم الثقة بالنفس والمخاوف المرضية والقلق والإرهاب الاجتماعي ، وغياب الإحساس بالتماسك والتكامل الداخلي في الشخصية مع ضعف الشعور بالهوية والانتماء وعدم الإحساس بالأمن)[3].

ثانيا: موضوعات شعر الغربة والحنين في الشعر الفلسطيني:

ـ بعض شعراء فلسطين ومواضيع الغربة في شعرهم: لقد عانى الشعب الفلسطيني من ظلم الاحتلال وَعُومِلَ بكل أنواع التعسف ، فتعرض للسجن والتعذيب والنفي والقتل والتشريد ما عمَّق إحساس الغربة داخله ،(فسنوات غربة الفلسطيني امتدت وتلتها الأعوام والأيام والشهور ، غربة تمثلت بحنين إلى وطن يشكل له جذور متأصلة بأرضه وحكايات

[1] قيس النوري: الاغتراب اصطلاحا ومفهوما وواقعا، مجلد 10، العدد الأول ، عالم الفكر للطباعة والنشر، 1979، ص: 13،ص40، نقلا عن محمد عبد اللطيف خليفة: دراسات في سيكولوجية الاغتراب ، ص: 39

[2]-محمد عبد اللطيف خليفة: المرجع السابق، ص40

[3]- يحي الجبوري : الحنين إلى الأوطان ، ص: 20

سمعها من أهله، أو ربما عايشها بنفسه ، ولكنها تبقى بعدا عن الوطن في كل الحالات ، فجأة وجد الفلسطيني نفسه وحيدا بعيدا عن أحبابه وأقاربه وقريته التي لعب فيها ، منسلخا عن مجتمعه المحبّب وذكرياته إلى غربة من نوع آخر لم يخترها)[1]، ولم يكن له حق الرفض في التغريب إليها ، غربة أجبرته أن يتقبلها بمرارة وخذلان (ولم يفكر للحظة أنها سترافقه العمر كلّه)[2]، فشكلت لديه حنينا عجيبا للوطن والديار والأهل والأحباب ، حنينا ربما شمل حتى أسوأ اللحظات التي عانى منها في وطنه إلا أنّه حنّ إليها حين بعد عن وطنه فهي وإن كانت عذابا في وطنه إلاّ أنّها جزء من وطنه وكلّ ما في الوطن قريب للنّفس ، حتى وإن كان الغير المستفيد ،لأنه يبقى شيئا من الوطن وعن الوطن، لذلك ارتبط حنين الشاعر الفلسطيني بغربته عن وطنه ارتباطا وثيقا ، فحين وجد نفسه بعيدا عن حمى أهله أحسّ بالغربة تحرق أنفاسه فحنّ إليه متجرّعا في ذلك مرارة قصوى كونه لا يملك سبيلا آخر غير الدموع والذكريات لينعش نفسه الجريحة، إنها جراح الهزيمة .

وما يمكن قوله هو أن غربة شعرائنا الفلسطينيين اليوم قد شكلت غربة شعب كامل ،(والحديث عن شعب كامل تشرّد وذاق مرارة الغربة كان حنينه في البداية يقوم على التفجّع والتوجّع والبكاء ، حنين لا يهدأ وإنما يتجدّد مع الزّمن فالحبّ للوطن والتمسك بالأرض يميزان الفلسطيني والتي هي غربة شعب ممزوج بعذاب لا نهاية له ، وواقع الاغتراب الذي يحياه الفلسطينيون تحت الاحتلال هو اغتراب نفسي وقومي أساسه طبيعة الاحتلال الصهيوني وواقع العالم العربي الإسلامي الذي لا يبعث الأمل في النفوس ،

[1]- ميسون جمال مصطفى : الغربة والحنين في الشعر الفلسطيني ، مقال بقلم السبت 5تموز 2008

[2]- المرجع السابق

فهزيمة 1967أحدثت شرخا عميقا في الشخصية العربية ، تلك الهزيمة التي لم يكن المواطن العربي يتوقعها ،كما أن ملاحقة الثورة وضربها في أكثر من مكان ساعد على تعميق ظاهرة الاغتراب هذه وأن واقع الاحتلال واقع مسكون بالدهشة والخوف والقلق)[1]، فالبحث عن الذات هو من خلال البحث عن الوطن ، والغربة هي إحدى الدوافع التي تجعل الإنسان دائم البحث معبّرا عن مشاعره لذلك يمكن القول أنّ: (غربة شعب فلسطين بمثابة أمر شاذ وغريب في التاريخ ، والظروف التي أحاطت بمأساته كانت من التشابك والتعقيد، بحيث جعلتها تبدوا كأنّها لغز محيّر ليس له حل)[2]ما أدخل الفلسطيني– الشاعر – في دوامة حقيقية خلص فيها أنه الوحيد المعني بقضيته وبغربته(متخيلا أنه يقف وحده في معركة المصير، ما دفعه للاستماتة في سبيل حقوقه وأنه يقف بحذر وترقب ينتظر الفرصة المواتية لاسترداد حقه الضائع وكرامته المهدورة، متتبعا في ذلك كل السّبل ، باذلا كل التضحيات ، مناضلا في جلد وشراسة،مكافحا في صبرلا يعرف الحدود)[3].

(والغربة والحنين من الظواهر الإنسانية التي من السّهل أن يستشفها المرء من خلال تصرفات الإنسان ونتاجاته الأدبية والفكرية ، وعلى هاتين الظاهرتين يكون التصرف من خلال مظاهر التعبير عن النفس التواقة المحرومة ، وكلما شعر الإنسان بالغربة بدأت بوادر الحنين والشوق بالظهور بكل وضوح فمثل هذه الظواهر يكون لها الأثر في مجرى

[1]- عادل الأسطة:(1967،1981) ص84، نقلا عن زاهر جوهر حنني: من أدب الأسر شعر المعتقلات في فلسطين، ص: 33

[2] -أمين صالح عبد ربه: الغربة والحنين في الشعر الفلسطيني بعد المأساة، ص308

[3] - المرجع السابق ،ص308

حياة الإنسان وتصرفاته وتطلعاته)[1]، وهذا ما نجده عند شعراء فلسطين الذين تميزت نصوص ومضامين شعرهم بالحنين إلى الوطن والأهل والرفاق فصوروا مأساتهم وتعرّضوا لمعاناتهم ، ورسموا بذلك خلاصهم في صور عاطفية معبرة فهذا الشاعر الفلسطيني "سميح القاسم" الذي يسرح بخياله في غربة موحشة بعيدا عن عالم السجن إلى استحضار صورة أمّه فيتذكر دمعها الجارف على فراقه ويصوّر بيته الذي حنّ لضحكاته وكلامه يقول:

أمّاه! كم يحزنني أنّك من أجلي في

ليل من العذاب

تبكين في صمت متى يعود

من شغلهم إخوتي الأحباب

وتعجزين عن تناول الطعام

مقعدي خال، فلا ضحك ولا كلام

أمّاه! كم يؤلمني

أنك تجهشين بالبكاء

[1]- الديك ساري : محمود درويش الشعر والقضية ص9، نقلا عن زاهر الجوهر حنني ، من أدب الأسر شعر المعتقلات في فلسطين ،ص30

إذا أتى ليسألكم عني أصدقاء[1]

وحين يطول الليل بالشاعر في السجن ويبدأ الأسى بالتسلل لأعماقه من طول زمن الانتظار الذي قضاه يترقب ساعة خلاصه من السجن ومن الأرق والتعب المضنيين ، ومن غربة نفسية موحشة خلقها السّجن داخله فأزاحت النوم عن عينيه في لياليه الطويلة والتي لا يسهرها غير السجين المعذّب ينشد شاعرنا وحدته القاتمة في قصيدته " رسالة من المعتقل" يقول:

ــ أ ــ	– ب–
ليس لدي ورق ،ولا قلم	وقلت يالجريء في الزوار
لكنني...من شدّة الحر ومن مرارة الألم	حدّث!... أما لديك عن عالمنا أخبار؟!
يا أصدقائي ... لم أنم	فإنني سيدي من مدة
فقلت: ماذا لو تسامرت مع الأشعار	لم أقرأ الصحف هنا ... لم أسمع الأخبار
وزارني من كوة الزنزانة السوداء	حدث عن الدنيا ، عن الأهل عن الأحباب
لا تستخفوا ...زارني وطواط	لكنه بلا جواب!
وراح في نشاط	صفّق بالأجنحة السوداء عبر كوّتي .. وطار

1– حسن نعيسة: شعراء وراء القضبان،شعراء وراء القضبان ، من الأدب السياسي ، ط1، دار الحقائق للطباعة والنشر، 1986 مص228،ص229

يقبل الجدران في زنزانته السوداء مهلا! ألا تحمل أنبائي إلى الأصحاب؟[1]

ويدفع به الأسى إلى تصوير أهله خلف الحدود واصفا لهفتهم وشوقهم للقاء أحبابهم يقول:

أحبابنا: خلف الحدود

ينتظرون في أسى ولهفة مجيئنا

أذرعهم مفتوحة لضمنا لشمنا

قلوبهم مراجل الألم

تدق في تمزق أصم

تحار في عيونهم ... ترجف في شفاههم

أسئلة عن موطن الجدود... غارقة في أدمع العذاب والهون والندم[2]

ويصف حال أحبابه وهم يسألون عن بيتهم وأرضهم في ذهول ودهشة من سؤالهم نفسه:

... ويسألون

كيف حال بيتنا التريك

وكيف وجه الأرض ... هل يعرفنا إذا تعود؟![3]

---

[1]- سميح القاسم: ديوان سميح القاسم،(دط)، دار العودة ، بيروت، 1987م ص95،ص96

[2]- المصدر السابق ، ص57

[3]- المصدر السابق ، ص58

ثم نجده هاهنا في قصيدة "وراء القضبان "يحن لأيّام الّسمر مع الأصدقاء ،فيناشد بيته الذي جمعه بالأصدقاء متناسيا فيه هموم الحياة وبلائها يقول:

يا بيتنا الوديع .. يا شباكنا المضاء

ما أجمل السلام في حلقة أصدقاء

يطالعون الشعر، يشربون ، يروون من

النكات[1]

وتحنّ فدوى الطوقان هي الأخرى لطفولتها و تصّرح عن حاجتها للحبّ والحنان الذي يجب أن يمنح لطفلة فقدت معنى الحنان وفقدت حسّ الطفولة تقول:

للفرح الطفلي الساذج

للنّط على الحبل

وللغوص بماء البركة

للهو مع الأطفال

لتسلق أشجار الدار

القمع يعذبني

[1]- سميح القاسم: ديوان سميح القاسم ، ص93

والسطوة ترهبني

والجسم سقيم منهار [1]

ويزداد إلحاح الشاعرة في طلبها للحنان لتنسى وحشتها وشعورها بالغربة وترتاح تقول:

قد جئت ،هاهنا ،فافتحي القلب الرحيب وعانقيني

قد جئت أسند هاهنا رأسي إلى الصدر الحنون

فهنا في حضنك أستريح ، أغيب أغرق في جبيني[2]

ويتغنى "معين بسيسو" بغربته في المنفى حين يتذكر ريح غزّة ويلمع طيف الرفاق :

أنا في المنفى أغنّي للقطار

وأغنّي للمحطة

أيّ هزّة

حينما تومض في عينيّ غزّة

حين تلمع أصوات الرّفاق

حينما تنموا الرّفاق

حينما تنموا كغابة

[1]- فدوى طوقان : ديوان فدوى طوقان ، (دط)،(دت)ص:7

[2]- المصدر السابق ، ص:9

من بروق ورياح

حينما يلمع برق الكلمات[1]

وتوفيق زياد هو الآخر يناجي مرج بن عامر مصورا شوقه الكبير والمثقل بالقيود يقول :

وعرفتني لما أتيتك

بعد غيبتي الطويلة ،

مستفيض الشوق زائر

أبكي بلا دمع

واسحب خطوتي

في خطو مفجوع وقابر

في قلبي خناجر

علقت أنفاسي عليها

وهمست أن تنهض

فشدك ألف قيد محكم الحلقات قاهر[2].

[1]- معين بسيسو : ديوان معين بسيسو، (دط)، (دت)، ص33

[2]- توفيق زياد : ديوان توفيق زياد ،(دط)، (دت)، ص:12، ص13

الفصل الثاني

تجليات الغربة والحنين في شعر محمود درويش

أولا : محمود درويش حياته.

–مساراته الشعرية

– أعماله الشعرية

ثانيا : بواعث الغربة – أو الاغتراب – والحنين في شعر محمود درويش.

– بواعث اجتماعية

– بواعث سياسية

ثالثا: تجليات الغربة والحنين في شعر محمود درويش .

– الغربة المكانية

– الغربة الزمانية

– الغربة الروحية

الفصل الثاني

تجليات الغربة والحنين في شعر محمود درويش

أولا : محمود درويش حياته.

-مساراته الشعرية

- أعماله الشعرية

ثانيا : بواعث الغربة – أو الاغتراب – والحنين في شعر محمود درويش.

- بواعث اجتماعية

- بواعث سياسية

ثالثا: تجليات الغربة والحنين في شعر محمود درويش .

- الغربة المكانية
- الغربة الزمانية
- الغربة الروحية

أولا: محمود درويش حياته:

هو محمود درويش شاعر فلسطيني ، (من أبرز شعراء المقاومة الفلسطينية ،ولد عام 1941م في قرية البروة الواقعة قرب عكا)[1]، نشأ في قريته البروة حتى بلغ سن السبع سنين أين تعرضت قريته للاحتلال من طرف اليهود عام1948 ففر لاجئا مع أهله إلى لبنان (وبعد عام عاد إلى فلسطين وسكن قرية تسمى " دير الأسد " لاجئا في بلاده)[2].

قضى الشاعر طفولته لاجئا مشردا مع أهله وسكان قريته ، يحمل داخله مأساة الكبار وهمومهم فقد أحس بقضايا وطنه وشعبه في سن مبكرة ما شكل لديه وعيا مبكرا بقضية وطنه وأحوال شعبه.

وقد تلقى محمود درويش (علومه الإبتدائية في مدرسة "أوبرا" في مخيم الدامور في لبنان ، والثانوية في مدينة الناصرة)[3]، كما عرف محمود درويش منذ صغره السفر لوحده وهو صاحب الخمس سنوات، يقول في ذلك : « أذكر أني تعلمت السفر لوحدي في سن مبكرة ، سافرت أمي إلى عكا فغضبت لأنها تركتني ، وكم كنت أحب عكا ، كانت أبعد نقطة في العالم قبل سنين ، وصارت الآن ــ ويا للمفارقة ــ أبعد نقطة في العالم مرة أخرى ، كنت أحمل خمس سنين وأمشي في الشارع الأسود في اتجاه عكا

[1]- ينظر محمود درويش: الأعمال الكاملة، إعداد علي موصلي،(دط)، منتدى مكتبة الإسكندرية،(دت)، ص:4

[2]- المصدر السابق ، ص:4

[3]- محمود درويش: الديوان ، (دط)، (دت)، ص:2

»[1] ، أما رحلته الثانية ــ سفره ــ فقد كانت حين خرج مع أهالي قريته هاربا من رصاص العدو بعد احتلال اليهود قريته البروة عام 1948 باتجاه لبنان ، أما عن أسفاره الأخيرة فقد كانت صوب البلدان العربية والأجنبية بعد نفيه من فلسطين .

كان محمود درويش مثله مثل أي شاعر ضاق التشريد محبا لوطنه شديد التعلق بمسقط رأسه فقد كان يحب مدينته "عكا" كثيرا ، حيث شكلت لديه رحلة بحث حقيقية ، فكانت الأولى هي رحلة البحث عن أمه التي سافر إليها ،وتعددت أسفاره إليها فيما بعد لأغراض يوضحها هو في قوله :« دائما أبحث فيها عن شيء لا أجده ، فتشت فيها عن أمي فكانت عادت إلى القرية ، وبعد سنين فتشت فيها عن حبيبتي فكانت تزف إلى رجل آخر ، وفتشت فيها عن عمل فكان الفقر يلاحقني ، وفتشت فيها عن شعبي فوجدت الزنزانة والضابط الوقح ، كانت آخر حدود العالم ، وأولى المحاولات والخيبة ، وكان سورها يتآكل من الزمن »[2].

مارس محمود درويش نشاطات عديدة إضافة إلى كونه شاعر فقد اشتغل كصحفي ومحرر (من فعاليات المقاومة الفلسطينية ، كان عضو في حزب الحركة الشيوعية عام 1961في الأرض المحتلة ،كان محرر جريدة " الإتحاد" لحزب الحركة حتى سنة 1982، ثم عمل في مجلة شؤون فلسطينية في بيروت)[3].

---

[1]- محمود درويش : يوميات الحزن العادي، ص:5

[2]- محمود درويش: يوميات الحزن العادي، ص: 6

[3]- محمود درويش : الديوان ، ص:2

وككل شاعر مقاوم ومناضل ، مهتم بقضايا وطنه وشعبه ، مشهرا سلاح المقاومة بالكلمة في وجه العدو ، مثيرا همم الشعب للثورة ضد الغاصب تعرض محمود درويش للردع من طرف سلطات الاحتلال بسجنه ،(فدخل السجون الإسرائيلية أكثر من مرة : كانت المرة الأولى سنة 1961، ثم كانت الثانية سنة 1965، وسجن مرة ثالثة عندما ألقى قصيدته " نشيد الرجال" في أمسية شعرية في الجامعة العبرية ، ,وما بين (1965،1967) سجن الشاعر بتهمة النشاط المعادي لإسرائيل ، فذاع اسمه كشخصية عربية نضالية ضد الاحتلال الإسرائيلي ، وفي سنة 1969أعتقل للمرة الخامسة بعد أن نسف الفدائيون عدة بيوت في حيفا ، وبعدها أصبح الشاعر عرضة للاعتقال بعد أي تدبير صهيوني)[1]،ولكن سلطات الاحتلال الإسرائيلي لم تكتف بسجن الشاعر في كل مرة ، وإجباره على البقاء في منطقة معينة بل إنها هذه المرة قامت بنفيه بعيدا عن وطنه خارج فلسطين ، فتنقل بين العواصم العربية والأجنبية وبعدها (اختار المنفى في القاهرة سنة 1971، ثم بيروت حتى سنة 1982 ، ثم باريس ، فقبرص، ومنذ سنة 1987 استقر به الحال في مدينة لندن بعدما رفضت السلطات الإسرائيلية السماح له بالعودة لغزة)[2].

مساره الشعري: لقد أبدع محمود درويش طوال حياته في مجال الكتابة ،فعرفت الحركة الشعرية عنده ثلاث مسارات فنية مثلت مراحل كتاباته الشعرية وهي:

[1]- محمود درويش : الديوان ، ص:2

[2]- محمود درويش: الأعمال الكاملة ، ص:5

المرحلة الأولى : كانت في الستينيات (1960، 1969) حيث صدر للشاعر في هذه المرحلة عملين : الأول كان بعنوان عصافير بلا أجنحة وصدر سنة 1960، والثاني بعنوان : عاشق من فلسطين صدر عام 1966 .

المرحلة الثانية: كانت في السبعينيات (1972،1977)، فصدر للشاعر في هذه المرحلة عملين : الأول : أحبك أو لا أحبك سنة 1972 ، والثاني: أعراس 1977.

المرحلة الثالثة: وكانت في الثمانينات (1982،1986)، حيث صدر للشاعر في هذه المرحلة عملين كذلك : الأول كان : مديح الظل العالي عام 1982، والثاني : هي أغنية ،زهي أغنية عام 1986. [1]

أعماله الشعرية :

صدر للشاعر مجموعة من الأعمال عبر مسارات حياته نحاول إدراجها بترتيبها الزمني الذي صدرت فيه وهي كالتالي:

(أوراق الزيتون : صدر عام 1964،عاشق من فلسطين صدر عام 1966، آخر الليل : صدر عام 1967،العصافير تموت في الجليل : صدر عام 1967،حبيبتي تنهض من نومها : صدر عام 1970)[2]، (أحبك أو لا أحبك : صدر عام 1972،محاولة رقم سبعة : صدر عام1973 ،تلك صورتها وهذا انتحار عاشق :صدر عام 1975 ،أعراس

[1] محمود درويش : الديوان ، ص2:

[2] ينظر محمود درويش : الأعمال الأولى ، الديوان، ج1، ،ط2،رياض الريس للكتب والنشر2009، ص: 7، ص :8 ، ص :9 ، ص :10 ، ص :11 ، ص :12

،مديح الظل العالي: وهي قصيدة تسجيلية صدرت عام 1983 ،حصار لمدائح البحر : صدر عام 1984)[1]، (هي أغنية ، هي أغنية: صدر عام 1986،ورد أقل: صدر عام 1986 ،مأساة النرجس ، ملهاة القصة، أرى ما أريد : صدر عام 1990، أحد عشر كوكبا : صدر عام1992)[2]، (ديوان محمود درويش : جزءان)[3]، (لماذا تركت الحصان وحيدا : صدر سنة 1995، سرير الغريبة : صدر سنة 1999، لا تعتذر عما فعلت : صدر سنة 2003، كزهر اللوز أو بعد: صدر سنة 2005 ، أثر الفراشة صدر سنة: 2008) [4]. **وفاته:** (توفي محمود درويش في 9 أغسطس 2008) [5] (بعدما أجريت له جراحة الشريان الأبهر التي أودت بحياته)[6].

ثانيا: بواعث الغربة ـــــ أو الاغتراب ـــــ والحنين في شعر محمود درويش:

يقول محمود درويش في قصيدته " فكر بغيرك" :

وأنت تعد فطورك فكّـــــــر بغيـــــــرك

[لا تنسى قوت الحمـــــــــام].

وأنت تخوض حروبك فكّر بغيــرك

---

[1]- ينظر المصدر السابق ،ج2، ص :7 ،:ص: 8، ص:9

[2]- ينظر محمود درويش : الأعمال الأولى ، الديوان ،ج3، ص: 7، ص:8، ص9:، ص:10، ص :11

[3]- ينظر المصدر السابق

[4]- ينظر محمود درويش :الأعمال الكاملة.

[5]- محمود درويش : الديوان ، ص :5

[6]-محمود درويش : الأعمال الكاملة ، كتيب مرفق مع الديوان ، بقلم إلياس خوري ، ص: 124

[لا تنسى من يطلبون السلام].

وأنت تخوض حروبك فكّر بغيرك

[من يرضـــــــــعون الغمـــــــام].

وأنت تعود إلى البيت ، بيتك ، فكر بغيرك

[من فقدوا حقهم في الكلام].

وأنت تفكر بالآخرين البعيدين ، فكر بغيرك

[قل ليتـــــــــني شمعة في الظـــــــلام].[1]

ومن هنا جاء الإحساس بالغربة عند درويش انطلاقا من الاندماج بقضايا شعبه والإحساس بها سواء على الصعيد الاجتماعي أو السياسي أو الاقتصادي غير ذلك ، ومنه يمكن إدراج بواعث الغربة والحنين عند محمود درويش في باعثين الأول اجتماعي ، والثاني : سياسي .

1ــ بواعث اجتماعية: إن الحديث عن تجربة الغربة التي عانى منها محمود درويش يمكن ردها إلى مجموعة من العوامل التي كانت وراء إحساسه العميق بها ، نجد منها :

[1] محمود درويش: الأعمال الكاملة ، مجموعة كزهر اللوز أو بعد ،ص:337

أ ــ **طفولته المعذبة -المحرومة** - : (فطفولة " درويش" طفولة معذبة تبرز صوت الطفل الغص البريء الذي لاقى الحرمان بأشكاله كلها وعانى المنفى والتشريد والتجوال، وعاش لاجئا ، حرم طفولته وحصانه الخشبي وألعابه)[1] ، يقول في ذلك:

حَرَمُونِي مِنْ أَرَاجِيحِ النَّهَار

عَجَنُوا بِالْوَحْلِ خُبْزِي ... وَ رُمُوشِي بِالْغُبَارْ

أَخَذُوا مِنِّي حِصَانِي اَلْخَشَبِي [2].

وليست مرحلة الطفولة هنا هي المرحلة الحاسمة التي حددت مسار غربته ، لكنها كانت من أبرز الأسباب التي رسمت في حياته تلك الخطوة الجادة والعميقة (انعكست على شعره صرخات ألم وحزن أحيانا ، وصيحات تحد وتمرد أحيانا أخرى)[3]، فدرويش قد حرم من أن يعيش طفولته كما يحق لكل طفل أن يعيشها (فقد عبثت يد الظلم بعشه الهادئ فحولته إلى غابة تعيث فيها الوحوش المفترسة)[4]، فطفولته هي بداية مأساته الخاصة كما يقول: «إن طفولتي هي بداية مأساتي الخاصة التي ولدت مع بداية مأساة شعب كامل لقد وضعت ، لقد وضعت هذه الطفولة في النار في الخيمة ، في المنفى مرة واحدة ، وبلا مبرر تتمكن من استيعابه وجدت نفسها فجأة تعامل معاملة

[1] رقية زيدان : أثر الفكر اليساري في الشعر الفلسطيني محمود درويش، وسميح القاسم، وتوفيق زياد ، ص :179

[2] محمود درويش: الديوان ، الأعمال الأولى ، ج1، ص:211

[3] فتحية محمود : محمود درويش ومفهوم الثورة في شعره ، المؤسسة الجزائرية للطباعة والنشر، 1987 م، ص: 39

[4] المرجع السابق ، ص: 39

الرجال ذوي القدرة على التحمل ولا تستثنى من مصيرهم»[1]، يقول محمود درويش في ذلك :

جَعَلُونِي أَحْمِلُ الْأَثْقَالَ عَنْ ظَهْرِ أَبِي

جَعَلُونِي أَحْمِلُ اللَّيْلَةَ عَامْ

آهٍ مَنْ فَجَّرَنِي فِي لَحْظَةِ جَدْوَلِ نَارْ ؟

آهٍ ، مَنْ يَسْلِبُنِي طَبْعَ الْحَنَانْ

تّحْتَ أَعْلَامِ الصَّلِيبِ الْأَحْمَرْ[2]

فقد صوّر لنا هنا مشهد المسؤولية التي وجد نفسه مكلَّفا بحملها كالكبار وهو صبي لم يتم لعبه كباقي الأطفال .

وهاهو يحمل مأساة الطفولة في داخله ككل مرة وفي ذكرياته متسائلا في حيرة وقلق بريئين شوهتهما مآسي الحياة المؤلمة والتي وجد نفسه فجأة يقاسيها في العراء يقول:

يا أبي هل غابة الزيتون تحمينا إذا جاء المطر ؟

وهل الأشجار تغنينا عن النّار ، وهل ضوء القمر

[1] - محمود درويش : شيء عن الوطن ، ص:241،ص:242، نقلا عن المرجع السابق ، ص: 39، ص:40

[2] - محمود درويش : الديوان ، الأعمال الأولى ، ج1، ص: 212

سيذيب الثلج ، أو يحرق أشباح الليالي

إنني أسأل مليون

وبعينيك أرى صمت الحجر

فأجبني ، يا أبي ، أنت أبي

أم تراني صرت ابنا للصليب الأحمر ؟[1]

فقد مثلت الطفولة بالنسبة "لدرويش" مرحلة عذاب وحرمان من كل ما يتميز به الأطفال في حياتهم البريئة الناعمة، كما مثّلت في نفس الوقت مرحلة تنمُّ عن وعي ونضوج مبكر بمأساة الوطن وآلام شعب هذا الوطن ، فكانت العتبة الأساسية التي استطاع درويش أن يخطوها ليفهم هذا العالم الغريب ولينغمس في مشاكل الكبار ويشاركهم همومهم ومشاكلهم الكبيرة (ومأساة الوطن والطفولة فجرت في نفس الشاعر ينابيع الحب للوطن وللأطفال فتحولت مأساة الطفولة على يديه إلى معين ينضج بالحب الصوفي للطفولة والأطفال)[2]لذلك نجده حينما يتحدث عن أخته الصغيرة التي يعتبرها حياته فإنه يصور كل ما فعل لأجل أن تعيش أخته طفولتها التي حرم منها يقول في قصيدته " أهديها غزالا" :

أبي من أجلها صلّى وصام

---

[1]- المصدر السابق ، ص:210

[2]- فتحية محمود : محمود درويش ومفهوم الثورة في شعره ، ص: 47

وجاب أرض الهند والإغريق

إلها راكعا لغبار رجليها

وجاع لأجلها في البيد ... أجيالا يشد النّوقا

وأقسم تحت عينيها

يمين قناعة الخالق بالمخلوق![1]

لنجده في استعداد جامح لتحمل كل شيء في سبيل أن تنعم هي بطفولتها ومن مثلها من الأطفال الصغار فهو ينسى طفولته الدامية في لعبهم يقول :

فدائي الربيع أنا ، وعبد نعاس عينيها

وصوفي الحصى والرمل والحجر

سأعبدهم ، لتلعب كالملاك ، وظل رجليها

على الدنيا ، صلاة الأرض للمطر

حرير شوك أيّامي !

وأشهى من عصير المجد ما ألقى ... لأسعدها

[1] محمود درويش : الديوان ، الأعمال الأولى ،ج1، ص: 108

وأنسى في طفولتها عذاب طفولتي الدامي [1]

وحيثما يلتفت الشاعر يتذكر غربته ووحدته فيعترف بلا حبّه لطفولته ولذكرياته في قصيدته" ليل بلا حلم" :

ليل بلا حلم جديد للغريبة : من أنا

في الليل؟ ينقصني الكثير من الفَراش

لكي أطير. أنا الغريبة أينما اتجهت

حمامة حطت على

كتفي وعودها الهديل على الحنين إليَّ

هل نبقى معا ؟ نبقى معا وتحييني ؟

وأحب سرك ، لا تبوحي لي بسرك

لا أحب طفولتي والذكريات

ب) الشتات والتشرد : ومن عذابات "درويش" أن عاش لاجئا في وطنه، في قرية "الجديدة" لأن قريته سويت بالأرض وهدمت عن بكرة أبيها ولم يبق منها إلا أطلالها المهدمة وشجرة الصبار)[2]، يقول: في قصيدته " غريب في مدينة بعيدة ":

[1]- محمود درويش : الديوان ، الأعمال الأولى ،ج1، ص: 109

[2]- رقية زيدان : أثر الفكر اليساري في الشعر الفلسطيني ، ص: 60

عندما كنت صغيرا

وجميلا

كانت الوردة داري

والينابيع بحاري

صارت الوردة جرحا

والينابيع ظمأ

هل تغيرت كثيرا؟

ما تغيرت كثيرا

عندما نرجع كالريح

إلى منزلنا

حدقي في جبهتي

تجدي الورد نخيلا

والينابيع عرقا

تجديني مثلما كنت

صغيرا

وجميلا[1]

ويروي الشاعر مشهد اللجوء قائلا :« لقد صمد أبي وتحول من لاجئ في لبنان إلى لاجئ في بلاده من الصخر وحده كأنه يقتلع لنا رغيف الخبز والثوب والكتاب ولكي لا أنسى كان يدلنا على أشواك الصبار التي خاطت جسده بالأرض »[2] ، حيث يرسم لنا صورة الأب المنهك والمتعب الذي يكدح جاهدا للحصول على لقمة العيش له ولأولاده يقول في قصيدته " 3صور" :

كان أبي

كعهده محملا متاعبا

يطارد الرّغيف أينما مضى

لأجله يصارع الثعالبا

ويصنع الأطفال

والتراب

والكواكبا

أخي الصغير اهترأت

[1] - محمود درويش: الديوان،الأعمال الأولى، ج1، ص: 292، ص:293

[2] - محمود درويش: عابرون في كلام عابر، ص:16، نقلا عن رقية زيدان : أثر الفكر اليساري في الشعر الفلسطيني ، ص:60

ثيابه... فعاتبا

وأختي الكبرى اشترت جواربا

وكل من في بيتنا يقدم المطالبا [1]

(وقد طبع اللجوء في قلب " درويش" أحزانا وآلاما شديدة لن ينساها أبدا ، محفورة في ذاكرته الغصة ، وخاصة المشاهد المؤلمة منها ، ومحمود درويش أصبح لاجئا مرتين مرة خارج وطنه في بيروت ، ومرة داخل وطنه في قرية " الجديدة " حيث كان الأخير أشد مرارة وقسوة)[2]، فعبر عن هذا قائلا : «كنت لاجئا في المنفى وبين أن تكون لاجئا في الوطن وقد خبرت النوعين من اللجوء فإننا نجد أن اللجوء في الوطن أكثر وحشية» [3]، فدرويش بعد عودته إلى قريته " البروة " وجدها هدمت ولم يبق منها سوى الأطلال ، يقول في قصيدته " الحزن والغضب" :

القرية الأطلال

والناطور والأرض واليباب

وجذوع زيتوناتكم

أعشاش يوم أو غراب !

---

[1]- محمود درويش: الديوان ، الأعمال الأولى، ج1، ص: 292 ، ص :293

[2]- رقية زيدان : أثر الفكر اليساري في الشعر الفلسطيني ، ص :61

[3]- محمود درويش: شيء عن الوطن، ص: 216، ص: 217، نقلا عن رقية زيدان : أثر الفكر اليساري في الشعر الفلسطيني ، ص: 61

من هيّأ المحراث هذا العام ؟

من ربى التراب

يا أنت !... أين أخوك ... أين أبوك ؟

إنهما سراب [1]

وقد شكل المنفى حضورا مستمرا في ذاكرته لذلك ففقد كان دائم الحديث عن مدينته وعن قريته " البروة" يقول: «لم أعد طفلا منذ أدركت أن مخيمات لبنان في الواقع وأن فلسطين في الخيال ، لم أعد طفلا منذ مسني الحنين ، فكلما كبر القمر على أغصان الشجر حضرت في رسائل مبهمة إلى دار مربعة الشكل تتوسطها توتة عالية وحصان متوتر وبرج حمام وعلى سياجها قفير نحل يجرحني مذاق عسله ، وطريقان معشوشبان إلى مدرسة وكنيسة».[2]

هذا الحضور الدائم للوطن وللغربة وللبيت في ذاكرته ولّد لديه هذا الحنين الهائل مقارنة بحجم عمره الصغير يقول:

وطني ليس حزمة من حكايا

ليس ذكرى وليس حقل أهله

[1] محمود درويش: الديوان ،الأعمال الأولى ،ج1، ص: 67

[2] محمود درويش: فصلية الكرمل ، صيف 1999، ص: 232، نقلا عن رقية زيدان: أثر الفكر اليساري في الشعر الفلسطيني، ص:60

وطني ليس قصة أو نشيدا

ليس ضوءا على سوالف فلّة

وطني غضبة الغريب على الحزن

وطفل يريد عيدا وقبلة

ورياح ضاقت بحجرة سجن

وعجوز يبكي بنيه... وحقله[1]

ويضيف:

هذه الأرض جلد عظمي

وقلبي...

فوق أعشابها يطير كنخلة

علقوني على جدائل نخلة

واشنقوني فلن أخون النخلة[2]

فدرويش أعلن تمسكه بوطنه ، وصرح بوفائه له وأنه لن يخونه ولو كلفه حياته .

[1]- محمود درويش :الديوان، الأعمال الأولى ، ج1 ، ص :246

[2]- محمود درويش :الديوان، الأعمال الأولى ، ج1 ،ص: 246

ويعبر الشاعر عن طفولته المعذبة والمشردة حيث ازدادت حدة روحه في قصيدته "حبيبتي تنهض من نومها":

يوم تدحرجت على كل باب

مستسلما للعالم المشغول

أصابعي تزفر: لا تقذفوا

فتلت يومي للطريق الطويل

بطاقة التشريد في قبضتي

زيتونة سوداء

وهذا الوطن

مقصلة أعبد سكينها[1] .

وقضية اللجوء التي طبعت في نفس الشاعر مأساة مبكرة وجعلته يواجه أهوالها ومصائبها ، جعلته يتخذ من الخيمة السوداء رمزا ملازما له ولكل لاجئ فلسطيني معه في تلك المخيمات ، رمزا للجوع والعري والتشرد والضياع ، يقول مصورا غربته المصبوغة بواقع اللجوء الفلسطيني في الشتاء في قصيدته " رسالة من المنفى" من ديوانه " أوراق الزيتون1964":

[1] محمود درويش :الديوان، الأعمال الأولى ، ج1 ، ص:325،ص:326

هل يذكر المساء

مهاجرا أتى هنا ... ولم يعد للوطن ؟

هل يذكر المساء

مهاجرا مات بلا كفن ؟

يا غابة الصفصاف ! هل ستذكرين

أن الذي رموه تحت ظلك الحزين

كأي شيء ميّت إنسان ؟[1]

ويحنّ درويش لأهله ولمنزله فيتمنى أن يغفو فيه بعيدا عن دجى المنفى فيقول :

تعالي مرّة في البال

يا أختاه

إن أواخر الليل

تعريني من الألوان والظل

وتحميني من الذلّ!

وفي عينيك يا قمري القديم ،

[1] المصدر السابق ، ص146، ص: 147

شدني أصلي

إلى إغفاءة زرقاء

تحت الشمس ... والنخل

بعيدا عن دجى المنفى

قريبا من حمى أهلي[1]

ويحن محمود درويش لطفولته فيها:

تشهيت الطفولة فيك

مذ طارت عصافير الربيع

تجرّد الشجر

وصوتك كان ، يا مكان ،

يأتيني

من الآبار أحيانا

وأحيانا ينقطه لي المطر[2]

[1]- محمود درويش :الديوان، الأعمال الأولى ، ج1 ، ص :177

[2]- محمود درويش :الديوان، الأعمال الأولى ، ج1 ، ص: 147

وقد شكل البعاد والحنين والتشريد شكلا من أشكال الموت لديه ، بل آلام الموت أصعب من الموت بحد ذاته يقول:

أيتها البلاد القاسية كالنعاس

قولي مرة واحدة انتهى حبنا

لكي يصبح قادرا على الموت والرحيل

موتي لأرثيك

أو كوني زوجتي

لأعرف الخيانة مرة واحدة [1]

فدرويش هنا قابل للموت كالصاعقة ، فهو يرى الموت موتا واحدا ، لكن الألم هو من يوجع لذلك يقول: « لقد جربت آلام الموت وجربت الألم أيضا ، فوجدته سهلا ووجدت أن ما يوجعني في الموت ليس هو الموت بل آلام الموت »[2].

وقد كان حزن الشاعر وغربته من جرّاء التشريد يزداد التهابا بشكل خاص في مواسم الأعياد ، حين كان الأطفال يرتدون الثّياب الجديدة ويتحدثون عن طعام العيد وكان هو مع والده وجده ينتظرون دورهم للحصول على الطعام واللباس كالشحاذين ،

[1] محمود درويش: أنا الموقع أدناه ، بحضور إيفانا مرشليان،(دط)، دار الساقي 1991، ص:90

[2] المصدر السابق، ، ص:71

فطبع ذلك العيد في مخيمات بيروت عام 1949بعد رحيل درويش وعائلته بسنة إليها نفسا حزينة وغريبة تحنّ لبلدتها ، تحن لكل شيء يقول في قصيدة " الخبز":

هذا الطَّعْمُ

هذا الدَّمُ

هذا الملمس الهامس

هذا الهاجس الكونيّ

هذا الجوهر الكلّي

هذا الصّوت هذا الوقت

هذا الاندفاع البشر ، السرّ، هذا السحر [1].

من هنا أصبحت الطفولة عند محمود درويش وهو مشرّد لاجئ تعني العودة إلى وطنه ، فهناك قد ترك طفولته الحقيقية ، وعنها يقول: «وصرت أقترب عن عالم الطفولة الذي صار يعني المكان الذي ستخلّصني العودة إليه من الكلمة الجارحة " لاجئ" وهكذا تحولت عواطفي إلى أسيرة كلمة" العودة" التي تعني الانتهاء من العار فصرت أنتظر حيث أصبح الإحساس المرهف بالحرمان والظلم والتشريد مسيطرا على ذهني الصغير ، وكلّ ما ورثته من حبّ للدنيا استبدله الواقع الجديد بضيق شديد بها

[1] محمود درويش: الديوان، الأعمال الأولى ، ج2، ص:181،ص:282

ولهذا أذكر أنّي فقدت موهبة اللعب وتسلق الأشجار ، وقطف الأزهار ، ومطاردة الفراش، ورثت عن أهلي عادة التأفف والصّمت والتأمل»[1].

وتعدّ العودة للوطن حلما ساور الشاعر منذ طفولته ، فهو وقلبه أسيرا المكان (الوطن) ، والزمان(الطفولة) يقول:

من يحلم مثلي في طفولته

هو المسافر من أمسه إلى غده

وددت لو عدت من لألأ نجمتها

إلى شبيهي في بستان موعده

ظلّان نحن لشخص واحد ولنا

ما للسّماوي من نعمى توحده

وننأى وندنو صدى لا يلتقي أبدا

كأنني هو في منفى تشرّده

هي الضّرورة والرؤيا معطّلة

كأيّ معنى تشظَّى في تردّده

[1]- محمود درويش: شيء عن الوطن، ص:243،ص:244، نقلا عن : فتحية محمود: محمود درويش ومفهوم الثورة في شعره ، ص:45

لو كنت أصغر من قلبي لقلت له

خذني إلى ملتقى حلمي بمولده

هو المكان لرهان المنشدين على

فعل الزّمان وموسيقى تجدده

ما زلت أحلم حلمي ذاته وأرى

حلمي يسرني والدرب في يديه [1].

وفي قصيدة "عائد إلى يافا" نجد الشاعر متشهّيا في الشهيد الذي عاد للوطن وتركه لاجئا في منفاه :

هو الآن يرحل عنا

ليسكن يافا

ونحن بعيدون عنه

ويافا حقائب منسية في مطار

ونحن بعيدون عنه

هو الآن يمضي شهيدا

[1] محمود درويش: الأعمال الكاملة ، مجموعة لا أريد لهذه القصيدة أن تنتهي ص:68،ص:69

ويتركنا لاجئينا[1]

فالشاعر متلهف للعودة إلى يافا، منتظرا ساعة لحاقه بالشهيد لأنّه ما من حل يعيده لوطنه غير الموت .

ج) انتماء الشاعر الاجتماعي: لقد عمل الاحتلال الإسرائيلي على تشريد الشعب الفلسطيني وتهجيره عن أرضه ، كما كان حريصا على أن تتفشى ظاهرة الفقر والحرمان في أوساط المجتمع الفلسطيني ، حيث حرم الشعب الفلسطيني من استغلال مواردهم الطبيعية والتحكم بها بل وحوّل ممتلكاتهم إلى أملاك خاصة به ،وجعل من الشعب عاملا لديه يستغله بأبخص الأثمان وهو المضطر ليعيل عائلته بما يتقاضاه من أجر زهيد ،وهكذا أصبح الشعب الفلسطيني الذي سلب وطنه وأملاكه من سيد في أرضه إلى عامل فيها يعاني الجوع والفاقة بل وأصبح(يتكون في معظمه من العمال والفلاحين أي من الطبقات الكادحة التي تصارع أعباء الحياة يوميا لتوفر لنفسها ولأسرها العيش الكريم) [2]، ومحمود درويش هو واحد من أبناء هذه الطبقة الكادحة التي تكافح في سبيل توفير عيشهم من خدمة أرضهم بعرق جبينهم ودمائهم يوميا ، فكونه ينتمي لأسرة فلاحة فقيرة جعلته (أكثر اقترابا من هذه الطبقة وانجذابا إليها وأشد إحساسا بما تعانيه وهي تصارع ظروف الحياة القاسية من أجل تأمين العيش الكريم إلى جانب صراعها العنيف مع المغتصب الذي صمم أن يسلبها حقها في وطنها ويستولي

[1]- محمود درويش: الديوان، الأعمال الأولى ، ج2، ص: 48، ص50

[2]- فتحية محمود: محمود درويش ومفهوم الثورة في شعره، ص:48

على أرضها مصدر رزقها ومنبع حياتها الأولى)[1]، وهذا ما نجده مصورا في قصيدته " بطاقة هوية" من مجموعته " أوراق الزيتون1964" حيث يقول:

سجّل

أنا عربي

وأعمل مع رفاق الكدح في محجر

وأطفالي ثمانية

أسل لهم رغيف الخبز

والأثواب والدفتر

من الصّخر

ولا أتوسل الصدقات من بابك[2].

فتعلّق درويش بأرضه وبوطنه رغم المصاعب والآلام إنما كان لهذه الحقيقة التي عاشها بنفسه، وانتمائه لهذه الفئة الكادحة جعله يدرك ما تعانيه وتكابده في حياتها ، فرسم لنا بصورة حيّة معبّرة مأساة أهالي بلدته وانتمائه، ونسب والده وانتمائه الريفي الكادح لا لسادة الناس يقول:

[1]- المرجع السابق ، ص50

[2]- محمود درويش: الديوان ، الأعمال الأولى ، ج1، ص: 80

أبي : من أسرة المحراث

لا من سادة نجب

وجدي كان فلاحا

بلا حسب ...ولا نسب!

وبيتي كوخ ناطور

من الأعواد والقصب

أنا من قرية عزلاء ... منسية

شوارعها بلا أسماء

وكل رجالها في الحقل والمحجر[1]

2)بواعث سياسية:تمثلت في وعيه المبكر وإحساسه ب: قضية الوطن، السجن،و النفي.

أ) ـــــ **إحساسه بقضية الوطن:** لا يمكن لأي شاعر أو أديب مهما كان قريبا أو بعيدا عن أن أرضه ووطنه أن يعيش بمعزل عن قضايا شعبه وحياتهم التي يحيونها خصوصا في ظل الاحتلال أين يتعرض الوطن والشعب لمختلف أنواع الظلم والقهر

[1]- محمود درويش: الديوان ، الأعمال الأولى ، ج1، ص:82، ص: 83

ولكل أشكال العنف و التشريد، فيتفاعل مع همومهم ويتأثر بها ليقاسمهم بذلك آلامهم وأحلامهم .

وقد(تشتّت الشّعب الفلسطيني بفعل الكارثة التي حلّت بوطنه عام 1948، فمزّقت وحدته بين مشرد وهائم يصارع آلام الجوع والفقر والمرض وقسوة الطبيعة في المخيّمات وبين لاجئ محاصر في دياره ووطنه تحت رحمة عدوّ شرس يمارس ضدّه كلّ أساليب القمع والإرهاب)[1]،وإيمان درويش بقضية وطنه والتحامه مع شعبه في آلامهم ومآسيهم وكونه عاش ذلّ الاحتلال وقسوة الاضطهاد داخل وطنه وكونه شرّد خارج الوطن وداخله منذ صغر سنّه أيقظ لديه وعيا مبكرا بقضيّة الوطن وولّد لديه غربة مبكرة من واقع معاش ، يقول عن ذلك : «أذكر نفسي عندما كان عمري ستّ سنوات ، كنت أقيم في قرية جميلة هادئة ، هي قرية البروة الواقعة على هضبة خضراء يبسط أمامها سهل عكّا ، وفي إحدى ليالي الصّيف أيقظتني أمّي فجأة ، فوجدت نفسي مع مئات من سكّان القرية أعدوا في الغابة ، كان الرصاص يتطاير من على رؤوسنا ولم أفهم شيئا ممّا يجري ... وبعد ليلة من التشرّد والهروب وصلت مع أحد أقربائي الضائعين في كل الجهات إلى قرية غريبة ذات أطفال آخرين ، تساءلت

[1]- فتحية محمود : محمود درويش ومفهوم الثورة في شعره ، ص: 35

بسذاجة : أين أنا ؟ وسمعت للمرة الأولى كلمة لبنان » [1]، وقد صوّر لنا الشاعر مشهد اللجوء إلى لبنان قائلا :

جئنا إلى بيروت من أسمائنا الأولى

نفتّش عن نهايات الجنوب وعن وعاء القلب

سال القلب سال

وهل تمدّدنا على الأطلال كي نزن الشمال بقامة الأغلال

وجئنا من بلاد لا بلاد لها

وجئنا من يد الفصحى ومن تعب... [2]

ويتعرف الشاعر على سماء بيروت يقول:

من مطر على البحر اكتشفنا الاسم ، من طعم الخريف

وبرتقال القادمين من الجنوب، كأننا أسلافنا نأتي إلى بيروتَ

كي نأتي إلى بيروتَ... [3]

[1] محمود درويش : شيء عن الوطن ، ص:212، نقلا عن فتحية محمود : محمود درويش ومفهوم الثورة في شعره ، ص: 36

[2] محمود درويش : الديوان ، الأعمال الأولى، ج2، ص: 507، ص:508

[3] المصدر السابق، ص:505، ص:506

و(حين يندمج محمود درويش بواقع شعبه ، فإنه يندمج فيه بإحساسه وبقلبه وعقله، فإذا صور المآسي التي أحسّ بها وعاشها فإنّه لم يغرق في بحرها ، ولم تشغله عن رؤية الحقائق، حقائق الجرائم التي يرتكبها الأعداء في حق هذا الشعب ، ويحاولون التستر والتكتم عليها وإخفائها عن أعين العالم ، ليتسنى لهم تحقيق أغراضهم ومطامعهم في القضاء على الشعب الفلسطيني ، وإقامة دولتهم على أنقاضه)[1] ،ويكشف الشاعر عن هذه الجرائم في قصيدته(؟)التي يقول فيها:

كفاك يا صدقي ... ذئبان جائعان

مصّي بقايا دمنا ، وبعدنا الطوفان

وإن سغبت مرة ، لا تتركي الجثمان

وإن سئمت بعدها ، فعندك الديدان

إنا خلقنا غلطة ... في غفلة من الزمان

وأنت يا صديقتي العجوز ... ويا صديقتي المراهقة

كوني على أشلائنا ، كالزنبقات العابقة!

الغاب يا صديقتي يكفن الأسرار

وحولنا الأشجار لا تهرب الأخبار

[1]- زاهر الجوهر حنني: شعر المعتقلات في فلسطين، ص:53

والشمس عند بابنا معمية الأنوار

واشية، لكنها لا تعبر الأسوار[1].

ب)السجن: لقد كان محمود درويش عرضة للسجن من طرف سلطات الاحتلال وفي كل مرّة كانت تلفّق له قوات المحتل تهمة جديدة فمرّة (بسبب نظم قصيدة وطنية ، أو المشاركة في تظاهرة ، وقد عانى درويش ظروف السجن ، وعايش قسوة الظروف الصعبة داخل الزنزانة من ظلام وحشرات ، وصقيع وحر ، من حرمان وقهر ، إضافة إلى ضيق المساحة داخل الزنزانة ، أو السجن ، والاغتراب واللوعة ، والرطوبة الخانقة والجدران العفنة)[2]، فيصوّر لنا حياة السّجن الباعثة على الغربة والوحدة راسما حاله الذي آل إليه وقد تغير كل شيء عليه داخله ، وصار طعم الأشياء التي ألفها غير طعمها في السّجن ، شكل القمر ورائحة الأرض ، يقول :

تغيّر عنوان بيتي

وموعد أكلي ومقدار تبغي تغيّر

ولون ثيابي ووجهي وشكلي

وحتى القمر

عزيز عليّ هنا...

---

[1]- محمود درويش، الديوان ، الأعمال الأولى ، ج1، ص: 50،ص:51

[2]- فايز أبو شمالة: السجن في الشعر الفلسطيني (1976،2001)، المؤسسة الفلسطينية للإرشاد القومي رام الله ، فلسطين ،2003،ص:31، نقلا عن رقية زيدان: فلسطين في الفكر اليساري ، ص:61

صار أحلى وأكبر

ورائحة الأرض عطر

وطعم الطبيعة سكر[1] .

ويبعث السّجن على الوحدة داخله فيناشد غربته الباعثة على الأسى في قصيدة " برقية من السجن":

من آخر السجن ، طارت كف أشعاري

تشد أيديكم ريحا... على نار

أنا هنا ، ووراء السور ، أشجاري

تطوّع الجبل المغرور ... أشجاري

مذ جئت أدفع مهر الحرف، ما ارتفعت

غير النجوم على أسلاك أسواري [2].

(فمحمود درويش إن جاز التعبير يعد من شعراء المعتقلات المخضرمين ، فهو عاش في فترة الاحتلال الأولى (النكبة 1948،1967) ، واعتقل عدّة مرات ، كما عاش

[1]- محمود درويش: الديوان ، الأعمال الأولى ،ج2، ص:117

[2]- المصدر السابق، ص:115

فترة الاحتلال الثاني (النكسة وما بعدها1967) واعتقل عدة مرات أيضا)[1].

ويسخر الشاعر من السّجان وقد ألف حياة السّجن فصار بالنسبة له تحدّيا ونضالا:

أقول للمُحْكِمِ الأصفاد حول يدي:

هذي أساور أشعاري وإصراري

في حجم مجدكم نعلي وقيدي

في طول عمركم المجدول بالعار

أقول للناس. للأحباب : نحن هنا

أسرى محبتكم في الموكب الساري [2].

ج)المنفى: لقد تعمق إحساس الغربة عند درويش أكثر حين أبعد عن وطنه مرتين مرة خارج وطنه بعد السبعينيات ، ومرة داخل الوطن بعد هدم بيته وقريته البروة ، وحتى معاناته في المنفى القومي أثناء تجواله في الدول العربية المختلفة قد شكلت وازعا حقيقيا باعثا على الاغتراب في نفسه ، فكانت أبعاد هذا الشعور واضحة وجلية في شعره وفكره ، فتوالي خيبات الأمل والانكسار باتت واقعا عاديا استطاع الشاعر ترويضه ، يقول« كان علينا أن نركب عقلا آخر يتحمّل صدمة المفاجآت ولكي نتكيف

[1]-زاهر الجوهر حنني:شعر المعتقلات في فلسطين، ص:54

[2]- محمود درويش: محمود درويش: الديوان ، الأعمال الأولى ،ج1 ، ص: 117

مع متطلبات فهم العالم الفوضوي الجديد»[1] ،(فقصيدة المنفى وإن اكتسبت موضوعا من ولادتها في المنفى فإنها لم تكن حكرا على الشاعر المنفي أو المبعد عن وطنه ، لأن صورة المنفى ظلت ماثلة في خيال الشاعر بما في ذلك الإحساس باللجوء داخل الوطن)[2] يقول درويش في ذلك : « وإن كان متاحا الآن تقييم هذه التجربة ، تجربة اللاجئ في وطنه فإنها أقسى من تجربة المنفي، في المنفى يتوافر لديك الإحساس بالانتظار وبأن المأساة مؤقتة فتشم رائحة الأمل ، أما التجربة الأخرى اللجوء في الوطن فإنه غير مبرّر وصعب الاستيعاب»[3].

وتتعدد صورة المنفى بتعدد المنافي فهي (لا تختص بقيم مكانية محددة إذ أنّ المكان فيها متغير داخل مجموعة متغيرات لا تنتهي فالدلالات المكانية كلها تتحرك على محور الوطن/المنفى وإن انجذبت نحو محاور أخرى)[4].

وتتحدد صورة المنفى لدى الشاعر لتأخذ أبعادا مكانية تنتقل بين الداخل والخارج من ذات الشاعر يقول:

لم يبق لي

---

[1]- محمود درويش: أنا الموقع أدناه ،ص: 90

[2]-محمد حلمي الريشة ومراد السوداني، شعراء فلسطين في نصف قرن، ص:16، نقلا عن :جمال مجناح:دلالات المكان في الشعر الفلسطيني المعاصر بعد 1970 ،رسالة دكتوراه،جامعة باتنة، الجزائر ،(1428ه ، 1429ه)،(2007م،2008م) ص:222

[3]- رجاء النقاش : محمود درويش شاعر الأرض المحتلة ،ط2، دار الهلال للنشر، (دت)، ص:111

[4]- زياد أبو لينا :غابة الألوان والأصوات، دراسات في شعر عز الدين المناصرة،ط1، دار اليازوري للنشر ،عمان، الأردن،2006ص82، نقلا عن جمال مجناح : المرجع السابق ،ص:222

إلا أن أتشرد في ظلك الذي هو ظلي

ولم يبق لي

إلا أن أسكن صوتك الذي هو صوتي [1].

(وقد تمثل المنفى لمحمود درويش عبر قصائده شبحا يكتنف العالم ، فالصمت منفى ، واللقاء منفى وعيون الحبيبة منفى ، والولادة منفى، ولهذا حرم على الفلسطيني أن يحب لأنه لا يدري غدا في أي أرض يكون)[2].

يقول درويش:

ليتني حجر

لا أحن إلى أي شيء

فلا أمس يمضي ولا غد يأتي

ولا حاضري يتقدم أو يتراجع

لا شيء يحدث لي !

ليتني حجر ــ قلت يا ليتني

[1] محمود درويش: الأعمال الكاملة ، مجموعة أحبك أو لا أحبك ، ص:124

[2] إبراهيم نمر موسى:آفاق الرؤية الشعرية ،دراسات في الشعر الفلسطيني المعاصر،، ط1، الهيئة العامة للكتابة ، رام الله ، فلسطين،2005،ص:5، نقلا عن جمال مجناح : دلالات المكان في الشعر الفلسطيني المعاصر بعد 1970 ، ص:223

حجر ما يلصقني الماء

أخضر ، أصفر ...أوضع في حجرة

مثل منحوتة ، أو تمارين في النحت[1].

فمأساة المنفى دفعته إلى التمني لو كان حجرا حتى لا يحس بشيء قد يوجعه ويدفعه للحنين وهاته قمّة العذاب حين يتمنى الإنسان لو كان لاشيء حتى يتخلّص من واقعه .

ويحاول درويش ككل مرة رسم إحساس التشرد في المنفى والضياع والشتات ، فالحنين والإحساس الرهيب بالغربة والضياع جعلا الشاعر يرسم خارطة إحساسه بالتشرد في شكل قائمة تحوي أشياء فقدها الشاعر ولم يستطع تحقيقها حتى الآن يقول:

ولكنني أنا المنفي خلف السور والباب

خذيني تحت عينيك

خذيني أينما كنت

ردي إليّ لون الوجه والبدن

وضوء القلب والعين

وملح الخبز واللحن

وطعم الأرض والوطن

[1] محمود درويش: الأعمال الكاملة، مج أثر الفراشة، ص:145

خذيني تحت عينيك[1].

(فبعد المنفى لا يمكن إلا أن يكون مجموعة ترددات تختزل الظاهرة النفسية المتخفية وراء حياة الشتات لأن الصورة تسترجع المكان من ثنائية الوطن/المنفى والفارق هنا أن الشاعر لا يتجه مباشرة إلى أمكنة الوطن ولكن يشير إليها من خلال استحضاره لواقع المنفى وما تركه من آثار نفسية يتوجهها حسّ الخوف من الرحيل المرتقب)[2]، يقول محمود درويش في قصيدته" كوشم يد في معلقة الشاعر الجاهلي":

أمشي الهوينا على نفسي ويتبعني

ظلي وأتبعه ، لا شيء يرجعني

لا شيء يرجعه

كأني واحد مني يودّعني

مستعجلا عنده ــ لا تنتظر أحدا

لا تنتظرني ولكن لا أودّعه[3]

[1]- محمود درويش : الديوان، ص: 185

[2]- جمال مجناح: دلالات المكان في الشعر الفلسطيني المعاصر بعد 1970 ، ص: 226

[3]- محمود درويش: الأعمال الكاملة ، مج كزهر اللوز أو أبعد ، ص: 416

ثالثا: تجليات الغربة والحنين في شعر محمود درويش:

أ)الغربة المكانية: ارتبط الشعور بالغربة عند محمود درويش بفقد المكان والبعد عن وطنه فلسطين ، حيث يقول: «يا وطني الذي أعرف الطريق إليك منذ ربع قرن وأنا ذاهب إليك عبر جملة العربية وغريب عنها وعنك»[1]، فعلى الرغم من أن اغتراب الشاعر عن وطنه كان بنوعيه داخل الوطن وخارجه إلا أنّه بقي مرتبطا بمكانه الأوّل شديد التعلق به ، فالشعور بالاغتراب الناتج عن فقد المكان – فلسطين – لا يكاد يفارق الشاعر بل إنّه شكّل هاجسه الوحيد وظلّه الذي لازمه لذلك يعبّر محمود درويش عن افتقاده للمكان الأصلي وتحرّقه إلى تفاصيله وشعوره بالاغتراب بعيدا عنه في رسائله التي بعثها إلى سميح القاسم :«المكان، المكان. أريد أي مكان في مكان المكان لأعود إلى ذاتي ، لأصنع الورق على خشب أصلب ، لأكتب رسالة أطول ، لأعلّق لوحة على جدار لي ، لأرتب ملابسي ، لأعطيك عنواني، لأربّي نبتة منزلية، لأزرع حوضا من النّعناع ، لأنتظر المطر الأوّل، كل شيء خارج المكان ، عابر وسريع الزوال حتى ولو كان جمهورية»[2].

وقد تعامل محمود درويش مع الأمكنة والمدن بشكل مكثف ومتنوع في أشعاره(وهذه التنويعات المكانية جعلت للشاعر حساسية عالية لوصف المدن وسرد ذاكرة الأماكن داخل فلسطين وخارجها مما يجعله يصف الحنين بأنه الرائحة المشتركة التي

---

[1]- محمود درويش: يوميات الحزن العادي، ص:182

[2]- محمود درويش والقاسم: الرسائل ، ص: 37، نقلا ليانة عبد الكريم عبد ربه:المكان وتحولات الهوية عند درويش ، رسالة ماجيستر، جامعة بيرزدت ، فلسطين ،2012،ص:51

تتقاسمها المنافي كلها)[1]،(المدن الرائحة :عكا رائحة اليود البحري والبهارات، حيفا رائحة الصنوبر والشراشف المجعلكة،موسكو رائحة الفودكا على الثلج ،القاهرة رائحة المانجو والزنجبيل، بيروت رائحة الشمس والبحر والدخان والليمون، باريس رائحة الخبز الطازج والأجبان ومشتقات الفتنة ، دمشق رائحة الحناء والبخور والعسل)[2]، فالشعور بالمنفى في كل مكان يذهب إليه "درويش" حتى في عالمه الداخلي ، في ذاته،بعيدا عن فلسطين قد عمّق لديه الإحساس بالغربة ، فإحساسه باللجوء داخل وطنه أو خارجه (شكل لديه بعدا نفسيا اغترابيا يعكس نفسه كمحرك ومحرّض داخلي للتغرّب على هذا الإحساس بالنفي وبوطأة البعد والافتقار لرائحة الأرض الفلسطينية في بلاد الغربة)[3] ما جعله يضج بالحنين والرؤى والأخيلة يقول في ذلك :

ما اسم الأرض

شكل حبيبة يرميك قرب البحر

ما اسم البحر

حد الأرض ، حارسها ، حصاد الماء أزرق، أزرق

ما اسم الأرض

---

[1]- المرجع السابق ، ص:56

[2]- محمود درويش: في حضرة الغياب، رياض الريس للطباعة والنشر، ص:91، نقلا عن المرجع السابق، ص: 56

[3]- محمد العامري:المغني الجوال دراسات في تجربة محمد القيسي الشعرية ،ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت، 2002، ص: 70، نقلا عن جمال مجناح: دلالات المكان في الشعر الفلسطيني المعاصر بعد 1970، ص222

بحر أخضر ، آثار أقدام ، دويلات الصّوص عاشقان

أنبياء ، آه وما اسم الأرض؟[1]

فصورة المكان البحر شكلت لديه غربة عجيبة تدفع على الشعور بالموت ومثلت عند الشاعر رمزا للألم ، فهي –دلالة البحر– لا تحمل عنده غير الفواجع ، كما يمثل ذلك رصدا لمآسي المنفى والغربة التي يحسّها في ذاته نتيجة بعده عن الوطن .

ويرتبط الشعور بالاغتراب عند درويش بفقد الوطن ، بالخوف من الضياع النهائي ، من الرحيل ، فيشكل لديه حنينا مسبقا وخوفا على ضياع الهوية مثل ضياع المكان ، وضياع النفس بضياع المكان وفقده ، ويظهر ذلك جليا من خلال تعلقه بمكانه الأول ببيته ،بقريته ، فتظهر فجيعته عندما يتساءل وهو يهمّ بالرّحيل عما سيحلّ بما ترك وراءه من أحلام وذكريات وأماكن، فقلبه لا زال معلقا بمكانه الأول :

يا أبي خفف القول عنّي

تركت النوافذ مفتوحة

لهديل الحمام

تركت على حافة البئر وجهي

تركت الكلام

[1]– محمود درويش : الديوان ، ص: 490

على حبلة فوق حبل الخزانة

يحكي ، تركت الظلام

على ليلة يندثر صوف انتظاري

تركت الغمام

على شجر التين ، ينشر سرواله

وتركت المنام

يجدد في ذاته

وتركت السلام

وحيدا هناك على الأرض...[1]

ويتساءل محمود درويش مرّة أخرى في حيرة وذهول عما سيحلّ ببيته بعد رحيله ، فهو يحسّ بحنين مسبّق للمكان الأول الذي ولد فيه وهو يتغرب عنه تاركا قلبه عنده:

ومن سيسكن البيت من بعدنا

يا أبي ؟

سيبقى على حاله مثلما كان

[1]- محمود درويش: الأعمال الكاملة ، مج لماذا تركت الحصان وحيدا، ص:647

يا ولدي!

تحسّس مفتاحه مثلما يتحسّس

أعضاءه واطمئن

لماذا تركت الحصان وحيدا؟

لكي يؤنس البيت ، يا ولدي!

فالبيوت تموت إذا غاب سكانها[1].

ويتبادر إلى الذهن قصيدته " هي أغنية" التي يقول فيها:

وحين أعود للبيت

وحيدا فارغا إلا من الوحدة

يداي بغير أمتعة ، وقلبي دونما وردة

فقد وزعت ورداتي

على البؤساء منذ الصباح، ... ورداتي

وصارعت الذئاب، وعدت للبيت

بغير حفيف قبلتها

[1] محمود درويش: الأعمال الكاملة ، مج لماذا تركت الحصان وحيدا ، ص: 642، ص: 643

بغير رفيف لمستها[1].

فالشاعر يحس بوحشة وغربة رهيبتين وهو وحيد بعيد عن أهله في بيته الخالي من ضحكة الأهل ، من لمسة الأم ، فغربته إذن سببها المكان الخالي ممن يحب وهو بعيد في منفاه، لذلك نجده حين يهمّ بالعودة إلى بيته يتذكر وحدته فيحسّ بغربة دامية تكتسح جدران قلبه، فيصف لنا خلوّ المكان مصوّرا غربته بربطها بفراغ الحياة الرهيب التي يحياها :

وحين أعود للبيت

أحس بوحشة البيت

وأخسر من حياتي كل ورداتي

وسر النبع ... نبع الضوء في أعماق مأساتي

وأختزن العذاب لأنني وحدي[2].

ولقد ألف الشاعر شرب القهوة مع أهله ورفاقه، وهاهو اليوم في غربته ومنفاه يشربها وحيدا ، ليحسّ بوحدة ووحشة رهيبتين تملآن أركان البيت يقول:

وحيدا أصنع القهوة

وحيدا أشرب القهوة

---

[1]- محمود درويش: الديوان،الأعمال الأولى ، ج1، ص: 39

[2]- المصدر السابق ، ص:40

فأخسر من حياتي

أخسر النشوة[1].

ويدفع الشعور بالغربة بشاعرنا هذه المرة لأن يتخذ من الأشياء أصدقاء له " السجائر، الأشعار وحتى الجرائد، وضوء المصباح " لينسوه غربته وبعده عن الوطن يقول:

رفاقي هاهنا المصباح والأشعار والوحدة

وبعض سجائر... وجرائد كالليل مُسَوَّدَة[2].

ويقفل درويش الأبواب على قلبه هذه المرة ليمنع الحنين من التسلل إلى داخله فيسدّ عليه كلُّ المنافذ ، والشاعر هنا يعالج غربته بغربة أخرى حين يحاول منع نفسه التذكر والحنين آملا أن يتناسى أنه غريب وأنّ له وطن وأهل جمعه بهم ذلك الوطن تحت سقفه يوما ما يقول:

أمشي حفيفا كالطيور على أديم الأرض

كي لا أوقظ الموتى وأقفل باب

عاطفتي لأصبح آخري ، إذ لا أحسّ

[1] - محمود درويش:الديوان، الأعمال الأولى،ج1، ص:40

[2] - المصدر السابق، ص:40

بأنني حجر يئن من الحنين إلى السحابة.[1]

فكل غربة يتبعها حنين، وإن حاول الشاعر مرارا أن يوهم نفسه بالنسيان ،ببعده عن أرضه ليدفع وابل الغربة عنه، وحتى لا يحسّ بطعمها المرّ ككل مرة، فإنه هذه المرة لا يجد بُدًّا من ذلك إلا العودة بذاكرته للوراء ليتذكر منزله والشوارع التي مشى على أرصفتها ، والطريق المؤدي للكنيسة، ما يدفعه لرسم كل تلك الأمكنة في صورة مرتبة من الذكريات تصور المكان الأول بكل تفاصيله على شكل فصول مسرحية مثلت مكانا لم يعد موجودا إلا في خياله يقول:

أنا هنا منذ عشر سنوات ، وفي هذا المساء

أجلس في الحديقة الصغيرة على كرسي من

البلاستيك، وأنظر إلى المكان منتشيا بالحجر

الأحمر، أعد الدرجات المؤدية إلى غرفتي

على الطابق الثاني ، إحدى عشر درجة إلى

اليمين شجرة كبيرة تظلل شجرات خوخ

وإلى اليسار كنيسة لوثرية ، وعلى جانب

الدرج الحجري بئر مهجورة ودلو صدئ وأزهار

[1]- محمود درويش:الديوان، الأعمال الأولى،ج1، مج عاشق من فلسطين، ص:16

غير مروية تمتص حبيبات من جليل أو الليل

أنا هنا مع أربعين شخصا لمشاهدة مسرحية قليلة

استرق النظر إلى نافذة غرفتي

المفتوحة وأتساءل : هل أنا هناك ؟[1]

فالشاعر يريد أن يوصل لنا أنه رغم غيابه عن مكانه الأول إلا أنه حاضر فيه بذاكرته ، بحنينه وبولائه لمسقط رأسه ، فروحه حاضرة في كل مكان اعتاد التردّد عليه حتى وإن زال ولم يعد موجودا إلا أنه باق في ذاكرته ،حاضرا بكل تفاصيله فهو دائم الوصال لمكانه الأول ، شديد الوجد إليه.

وكان الشاعر يحنّ شوقا لوطنه "فلسطين" ولقريته "البروة" بل شكّل حنينه هذا عذابا، فهو يحنّ إلى البروة وإلى البئر وبرج الحمام وإلى التوتة المتواجدة وسط ساحة المنزل ، كثير الحلم بها ، يقول في قصيدة " اعتذار":

حلمت بأسوار تاريخك المستحيلة

حلمت برائحة اللوز

تشعل حزن الليالي الطويلة

بأهلي حلمت

[1] محمود درويش: الأعمال الكاملة، مج أثر الفراشة، ص:178

بساعد أختي

سيلتف حول وشاح بطولة

حلمت بليلة صيف

بسلة تين

حلمت كثيرا[1].

ويسرح خيال الشاعر في هذه الطبيعة فيجد أن النّهر الذي كان يجري ذات يوم في قريته "البروة"، وكان يضج بالحياة قد توقف فجأة ، وصار يبعث على الغربة فيحنّ لجريانه الأول وحيويته الأولى التي تَمُتُّ للحياة فيرثي المكان من زمنه الأول يقول:

كَانَ نَهْرٌ هُنَا

وَلَهُ ضِفَّتَانْ

وَأُمٌّ سَمَاوِيَّة أَرْضَعَتْهُ السَّحَابَ الْمُقَطَّرْ

نَهْرٌ صَغِيرٌ يَسِيرُ عَلَى مَهْلِه

نَازِلًا مِنْ أَعَالِي الْجِبَالْ

يَزُورُ الْقُرَى والْخِيَامْ كَضَيْفٍ لَطِيفٍ خَفِيفٍ

[1] محمود درويش: الديوان، الأعمال الأولى ، ج1،ص:184،ص:185

وَيَحْمِلُ لِلْفَوْرِ أَشْجَارَ دِفْلَى وَنَخْلٍ

وَيَضْحَكُ لِلْسَّاهِرِ عَلَى ضِفَّتَيْهِ:

« أُشْرُبُوا لَبَنَ الْغَيْمِ

وَاسْقُوا الْخُيُولَ

وَطِيرُوا إِلَى الْقُدْسِ وَ الشَّامْ»

كَانَ يُغَنِّي فُرُوسِيَّةً مَرَّة

وَهَوَى مَرَّة

كَانَ نَهْرٌ لَهُ ضِفَّتَانْ

لَكِنَّهُمْ خَطَفُوا أُمَّه

فَأُصِيبَ بِسَكْتَةِ مَاءْ

وَمَاتَ عَلَى مَهْلِهِ عَطِشًا![1]

ويتذكر الشاعر "حيفا" وقد صارت دمارا ، فيبكيها مبديا حنينه إليها ، متذكرا تفاصيلها الأولى:

ظِلُّ النَّخيلِ وآخر الشهداء ، والمذياع يرسل صورة

[1]- محمود درويش: الأعمال الكاملة، مج أثر الفراشة ، ص: 189

صوتية عن حالة الأحباب يوميا

لم تبك حيفا ، أنت تبكي ، نحن لا ننسى تفاصيل المدينة كانت امرأة وكانت أشياء[1].

ويعاهد محمود درويش والده على حمل الحنين لقريته طوال عمره فيقول:

وسأحمل هذا الحنين

إلى

أوّلي وإلى أوّله

وسأقطع هذا الطريق إلى

آخري ... وإلى آخره [2].

ولما كان المنفى هو فقد المكان والسبب الأول للإحساس بالغربة والتشرد ، فإن أي تواجد للشاعر خارج مكانه الحقيقي يعدّ وجودا مؤقتا يتسم بالاضطراب، لذلك فالتواجد في المنفى هو تواجد في اللابقاء واللاديمومة ، ذلك أن (أية علاقة قد يقيمها ستكون مهددة بالانقطاع والانفصال الإجباري)[3]، ويحاول الشاعر رصد حياته المتوقفة عن الحركة من خلال استحضار محطّة القطار حيث توقف القطار عن السفر، وتوقفت حياته معه فلا أمل له في العودة للوطن يقول:

---

[1]- محمود درويش: الديوان ، الأعمال الأولى، ج2، مج أحبك أو لاأحبك، ص:32

[2]- محمود درويش: الأعمال الكاملة ، مج تركت الحصان وحيدا ، ص: 650

[3]-جمال مجناح: دلالات المكان في الشعر الفلسطيني المعاصر بعد 1970، ص: 223

القطار الأخير توقف عند الرصيف الأخير وما من أحد

ينقذ الورد ، ما من أحد ، يحط على امرأة من كلام

القطار الأخير توقف عند الرصيف الأخير ، وما من أحد

يستطيع الرجوع إلى ما تراجع من نرجس في مرايا الظلام

أين أترك وصفي الأخير لما حلّ بي من جسد

وانتهى ما انتهى . أين ما ينتهي؟ أين أفرغ ما حلّ بي من بلد؟

والقطار الأخير توقف عد الرصيف الأخير ... وما من أحد.[1]

ويستحضر الشاعر هذه المرة صورة " المطار" (كعتبة مكانية ناتجة عن هاجس الرحيل المستمر ، تسجل واقعا محددا مواقع انتظار الرحيل والمحطة المؤقتة المنتظرة)[2] أين الكلّ يتأهب للرحيل لكن في النهاية لا أحد يغادر وتستمر معاناة الانتظار يقول في " مطار أثينا":

مطار أثينا يوزعنا للمطارات . قال المقاتل: أين أقاتل؟صاحت به حامل: أين أهديك طفلك؟ قال الموظف: أين أوظف مالي ؟ فقال المثقف: مالي ومالك؟ قال رجل الجمارك: من أين جئتم؟ أجبنا: من البحر.قالوا : إلى أين تمضون؟ قلنا : إلى البحر. قالوا : وأين عناوينكم . قالت امرأة من جماعتنا : بقجتي قريتي. في مطار أثينا انتظرنا

[1]- محمود درويش: الديوان ، الأعمال الأولى ، ج3، مج ورد أقل، ص:125

[2]- جمال مجناح: دلالات المكان في الشعر الفلسطيني المعاصر بعد 1970: 223

سنينا . تزوج شاب فتاة ولم يجدا غرفة للزواج السريع , تساءل : أين أفض بكارتها ؟ فضحكنا وقلنا له: يا فتى لا مكان لهذا السؤال . وقال المحلل فينا : يموتون من أجل ألا يموتوا ، يموتون سهوا : وقال الأديب : مخيمنا ساقط لا محالة . ماذا يريدون منّا ؟ وكان مطار أثينا يغير سكانه كل يوم . ونحن بقينا مقاعد فوق المقاعد ننتظر البحر، كم سنة يا مطار أثينا!...[1]

ويتضح لنا من خلال استحضار صورتي " القطار"و "المطار" أن الشاعر يريد ايصالنا إلى إشكالية التواجد وعدم التواجد، فوجوده بين هذين الحيزين كفيل بتعميق الشعور بالغربة داخله.

ب)الغربة الزمانية: مثلت مآسي محمود درويش المتعلقة بالمنفى والبعد عن الوطن والأهل وقعا خاصا في نفسه يبعث على الغربة ، فدرويش ككل مرة يتذكر منفاه ووحدته يدخل في دوّامة التيهان عبر الزمن ليرجع به الحنين تارة إلى الوراء ، إلى زمن الطفولة ، وتارة أخرى ليستنطق رموز الطبيعة كالبحر للتعبير عن غربته عبر المراحل الزمنية ، وحين نتناول قصيدته التسجيلية 1983 من مجموعة "مديح الظل العالي " نجد صورة البحر تخرج في ثوب مأساوي تلخص لنا تجربة المنفى القاسية التي عانى منها الشاعر فيصبح البحر فيها مرحلة زمنية وبداية وإشكالية يقول الشاعر:

بحر لأيلول الجديد ...خريفنا يدنوا من الأبواب ...

[1] محمود درويش: الديوان ، الأعمال الأولى ، ج3، ص:125

بحر للنشيد المر .هيأنا لبيروت القصيدة كلها

بحر لمنتصف النهار

بحر لرايات الحمام ، لظلنا لسلاحنا الفردي

بحر للزمان المستعار

ليديك ،كم موجة سرقت يديك

من الإشارة وانتظاري

ضع شكلنا للبحر، ضع كيس العواصف عند أول صخرة

واحمل فراغك ... وانكساري

بحر جاهز من أجلنا

ومفتاح لهذا البحر كنا نقطة التكوين[1]

(فالشاعر يفتح المكان على زمن الحدث فالضياع يرتبط بالمكان لأنه زمن قائم بذاته، ومن هنا تحدث أول التحولات عندما يصبح البحر بنية زمنية ومكانية معا"بحر لأيلول" وهو أول المنبهات التي يشير إليها تاريخها ، إذ أن الزمن شهر" أيلول" له ذاكرته في التاريخ الفلسطيني الحديث كما أن البحر يختزن تاريخه القديم وصلته

[1] محمود درويش: الديوان ، الأعمال الأولى،ج2،ص:333،ص:334

بالهجرات المختلفة وطرق المنافي القديمة، وهو يتصل ببيروت، الزمن الحاضر الذي يعد هجرة جديدة)[1].

و(يتقاطع زمن الماضي مع راهن الزمن الحديث عند محمود درويش (زمن الضياع) الذي يشير إليه النص فتأتي حالة البحر معبّرة عن حالة مأساوية جماعية لا عن ذات فردية)[2]يقول:

نم يا حبيبي ساعة

لنمرّ من أحلامك الأولى إلى عطش البحار إلى البحار

الآن بحر

الآن بحر كله بحر،

ومن لا بر له لا بحر له

والبحر صورتنا

فلا تذهب تماما

هي هجرة أخرى فلا تذهب تماما [3]

ويحسّ محمود درويش بغربة موحشة في هذا الزمن ، يقول:

---

[1]- جمال مجناح : دلالات المكان في الشعر الفلسطيني المعاصر بعد 1970، ص:276

[2] - المرجع السابق ، ص: 276

[3]- محمود درويش: الديوان، الأعمال الأولى ، ج2، ص: 336،ص:338

أداعب الزمن

كأمير يلاطف حصانا

وألعب بالأيام

كما يلعب الأطفال بالخرز الملون

إني أحتفل اليوم

بمرور يوم على السابق

وأحتفل غدا

بمرور يومين على الأمس

وأشرب نخب الأمس

ذكرى اليوم القادم

وهكذا ... أواصل حياتي.[1]

فالزمن كله بات واحدا عند درويش ،حيث أن يومه أصبح كغده وكماضيه.

ويأخذ الشعور بالغربة والوحدة بالشاعر هذه المرة إلى استبكاء حاله الذي ساءه الزمن فيمضي إلى حتفه مبكرا، يقول في قصيدة " البكاء":

[1]- محمود درويش: الديوان، الأعمال الأولى ، ج2، ص:43،ص:44

ليس من شوق إلى حضن فقدته

ليس من ذكرى لتمثال كسرته

ليس من حزن على طفل دفنته

أنا أبكي

أنا أدري أن دمع العين خذلان ... وملح

أنا أدري

وبكاء في اللحن مازال يُلِح

شوكة في القلب مازالت تَغِزْ

قطرات ... قطرات... لم يزل جرحي ينز

أنا أدرى منك بالإنسان ... وبالأرض الغريبة

لأني أحمل الصخر وداء الحب

والشمس الغريبة

أنا أبكي

أنا أمضي قبل ميعادي... مبكر[1].

ويصرّح الشاعر بغربته في هذا الزمن ، حيث نجده يبدي رغبته في إلحاح وإصرار ملحوظين في الحصول على منديل أمه ، من وطنه الذي نسيه وكل الغائبين عنه طوال زمن غيابهم:

لا تقولي رأيناك في مصرع الياسمين

كان وجهي ماء

وموتي جنين

وأنا لا أريد

من بلادي التي نسيت لهجة الغائبين

غير منديل أمي

وأسباب موت جديد[2].

فهذا المنديل الذي طلبه الشاعر مقابل الدنيا كله هو منديل حفظ دموع أمّه التي انهمرت يوما عليه لفراقه ، فبه يروي عطشه ،وبدموعها المحبوسة في ثنايا المنديل يغسل روحه الآسية ،ورائحتها عليه تعطر له المكان فينسى ريح المنفى الذي هو فيه ،فهو يحسّ بغرابة كل ما في هذا الوجود عنه وهو الغريب في زمن لا يرحم دمع الغرباء .

[1]- محمود درويش: الديوان ، الأعمال الأولى ،ج1،ص57،ص:58

[2]- المصدر السابق، ص: 169

وهاهو الشعور القاتل بالغربة يدفعه مرة أخرى إلى رفض كل ما في الدنيا ، ولا يطلب غير منديل أمه أو أسباب موت جديد يقول:

مطر ناعم في خريف بعيد

والعصافير زرقاء ... زرقاء

والأرض عيد

لا تقولي أنا غيمة في المطار

فأنا لا أريد من بلادي التي سقطت من زجاج القطار

غير منديل أمي

وأسباب موت جديد[1].

فحين ربط الشاعر كلمة " مطر" بـــــ "الخريف"البعيد إنما ليعبر عن عمق المأساة فالمطر كما هو معروف في دلالته يرمز إلى العذاب والشاعر معذب في منفاه ،أما الخريف فيرتبط بالزمان وفيه تعبر الطبيعة عن كآبتها وتتساقط الأوراق الباعثة على الحياة لتكسو الأرض بساطا شاحبا ، فحال الشاعر هو تماما حال هذه الطبيعة وهذه الأرض الشاحبة المعذبة في هذا الزمن.

[1]- محمود درويش: الديوان ، الأعمال الأولى ،ج1، ص:268

ويؤدّي الشعور بالاغتراب بشاعرنا إلى التيه والضّياع ، فقد ألف البعد ، وهو من فرط الإحساس بالغربة وشدّة الحنين تولّد لديه شعور آخر بالاغتراب ، جعله غريبا عن هذا العالم بكل مادياته ، ما شكّل لديه رغبة قوية وغريبة كغربته في زمانه هذا هي "الرغبة في النّسيان"، يقول محمود درويش مصورا حاله في مشهد كامل معتبرا حاله مرضا خاصا وهو الحنين من نوع خاص ، "إنّه حنين إلى النسيان " :

ظلام . وقفت عن السرير ممسوسا بسؤال:

أين أنا ؟ بحثت عن جسدي فأحسست

به يبحث عني ، وبحثت عن مفتاح النور لأرى

ما يحدث لي ، أجده تعثرت بكرسي

فأسقطته وأسقطني على ما أعرف ، وكأعمى

يرى بأصابعه الأشياء فتشتت من جدار

أستند إليه فارتطمت بخزانة فتحتها...

فلامست يدي ثيابا شممتها فعثرت على رائحتي

أدركت أني في حيّز من العالم يخصني ، وانفصل

عني وانفصلت عنه ، تابعت البحث عن

مفتاح النور لأرى إن كان ذلك صحيحا

فوجدته ،تعرفت إلى أشياء : هذا أسيري

وهذا كتابي ــ وهذه حقيبتي ــ وهذا الذي

في البيجامة ، هو أنا تقريبا ، فتحت النافذة

وسمعت نباح كلاب في الوادي ، ولكن، لم

أتذكر متى عدت ، ولا أتذكر أني وقفت على

الجسر ، ظننت أني أحلم بأني هنا ،ولست

هنا، غسلت وجهي بماء بارد ، وتأكدت من

يقظتي . سرت إلى المطبخ فرأيت فواكه طازجة

وصحون غير مغسولة ، تدل على أنني تناولت

العشاء هنا، لكن متى حدث ذلك ؟ تصفحت

جواز السفر فأدركت أني وصلت اليوم ... دون

أن أتذكر أني سافرت ، هل حدث فصام ما

في ذاكرتي ، هل انفصل وجودي النفسي عن

وجودي الفيزيائي ــ خفت ــ ... واتصلت بصديق في

الذاكرة ... أين أنا؟ قال : أنت في رام الله .

سألته : متى أتيت؟ قال : اليوم وكنا معا بعد

الظهر.في حديقة فاتشي .سألته : لماذا لا أتذكر

هل تظن أني مريض؟قال: يحدث ذلك مع مرضى

من نوع آخر: مرضى الحنين إلى النسيان![1]

وتضيع حياة درويش في هذا الزمن جراء بعده عن الوطن ليلجأ إلى التلفاز باحثا عن ذاته وعن حياته وكل ذكرياته علَّه يجدها عبر محطات التلفاز ، ففي قصيدته " أبعد من التّماهي" يعبر عن غربته عن هذا العالم وعن هذا الزمان حين يقول:

أجلس أمام التلفزيون ، إذ ليس في وسعي

أن أفعل شيئا آخر ــ هناك ــ أمام التلفزيون

أعثر على عواطفي ــ وأرى ما يحدث لي

ألدخان يتصاعد مني ــ وأمد يدي المقطوعة

لأمسك بأعضائي المبعثرة من جسوم عديدة ،

فلا أجدها ولا أهرب منها من فرط جاذبية

[1] -محمود درويش: الأعمال الكاملة ، مج أثر الفراشة ، ص187،ص:188

الألم ، أنا المحاصر من البر والجو والبحر

لا شيء يثبت أني

موجود[1].

ويرثي محمود درويش فصل الربيع الذي مر سريعا أين ترك الكلّ يحسّ بالغربة (الشاعر، الراعي الحبق...) ويقاسي آلام الحزن والبين والبعد في هذا الزمان:

مرّ الربيع سريعا

مثل خاطرة طارت من البال

قال الشاعر القلق

في البدء أعجبه إيقاعه

فمشى سطرا فسطرا

لعل الشكل ينبثق

مرّ الربيع بنا

لم ينتظر أحدا

لم ينتظر عصا الراعي

[1] محمود درويش: الأعمال الكاملة ، مج أثر الفراشة ،ص: 146

ولا الحبق

غنّى ولم يجد المغنى

وقال قد يولد المغنى

مصادفة

وقد يكون ربيعي ... ذلك القلق[1].

فعادة الربيع أن يبعث على الفرحة في نفوس الناس، لكنه تولّى دون أن يراعي حال من يبكون عليه.

وتظهر الهويّة عند محمود درويش بالارتباط مع الأمكنة معبأة بالحنين والشّجن والتحسّر على الأزمان الماضية يقول:

يا أطفال بابل

يا مواليد السلاسل

ستعودون إلى القدس يوما

وقريبا تكبرون [2].

[1] -محمود درويش: الأعمال الكاملة ، مج أثر الفراشة ، ص: 224، ص:225

[2] -محمود درويش: الديوان، الأعمال الأولى، مج أحبك أو لا أحبك ،ج2، ص:45

ويعلن محمود درويش عن رحيله ، فغربته في هذا الزمن قد ضيّعته فهو يائس من زمانه كلّه بحاضره وماضيه ومستقبله، فهو لم يجد ذاته فيه رغم بحثه الطويل عنها لذلك صار يجد أن بقاؤه مستحيلا يقول:

سيداتي ...

آنساتي...

سادتي...

سلّيتكم عشرين عام

آن لي أن أرحل اليوم

وأن أهرب من هذا الزّحام

وأغنّي في الجليل

للعصافير التي تسكن عشّ المستحيل

ولهذا أستقيل [1].

ج)غربة روحية: فمحمود درويش كان دائما غريبا عن هذا العالم بكل مادّياته ، مندمج في تفكيره مع أهالي بلده " فلسطين" وقد شكّل البعد عن وطنه غربة روحية لديه ، ليحسّ أنه متميّز عن باقي الناس بقضيته الفلسطينية التي تشغل باله ، وطالما عانى

[1] محمود درويش: الديوان، الأعمال الأولى، ، مج أحبك أو لا أحبك ، ج1، ص: 322

محمود درويش وكل أبناء الشعب الفلسطيني من قضية الانتماء التي جعلت منها إسرائيل مشكلة عليه والتي أردته غريبا ، بل كلّما فكّر في كونه فلسطينيا زادت حدّة المأساة لديه وتعمّق الشّعور بالاغتراب داخله، فكونه فلسطيني لا يعترف به وبقضيته وبشعبه ، جعله يصوّر غربته النّفسية التي كان جرح الانتماء وضياع الهوية سببا في اتقادها يقول:

لو ولدت من أم أسترالية

وأب أرمني

ومسقط رأسك كان فرنسا

ماذا تكون هويتك اليوم؟

طبعا ثلاثية

وجنسيتي فرنسية

وحقوقي فرنسية

وإلى آخره

وإن كانت الأم مصرية

وجدتك من حلب

ومكان الولادة من يثرب

وأما أبوك فمن غزة

فماذا تكون هويتك اليوم ...؟

طبعا رباعية مثل ألوان رايتنا العربية

سوداء ، خضراء، حمراء ، بيضاء، ولكن جنسيتي تتخمر في المختبر

وأما جواز السفر

مازال مثل فلسطين مسألة فيها نظر

وما زال فيها نظر![1]

فالشاعر يدرك جيدا مأساة الواقع الذي يحياه كونه فلسطيني، فلو كان نسبه لغير فلسطين لأعترف بحقوقه كمواطن ، ولكانت هويته حاضرة على الدوام ومعترف بها ، لكن كونه من أب فلسطيني – فلسطيني الدم والروح – فإنه همّش وعومل باللامبالاة ،بل لم يعامل كمواطن له حقوق إنما أُجِّلَ حتى النّظر في قضيته، فهي معلّقة مثل وطنه " فلسطين" التي لم يعترف باستقلالها ، فكما فلسطين مقيدة وغريبة عن أبنائها ، فكذلك هو، وبما أنه واحد من أبنائها فلا زال ينظر في أمره إن كان سيعترف به يوما وبهويته وانتمائه.

[1]- محمود درويش: الأعمال الكاملة ، مج لا أريد لهذه القصيدة أن تنتهي، ص:121

وتتفجر مشاعر الحنين والغربة والتوق إلى الأمان والوطن وإلى الأمّ وإلى أبسط من حقوق البشر يقول في قصيدة " إلى أمي":

أحنّ إلى خبز أمّي

وقهوة أمّي ... ولمسة أمّي

وتكبر في الطفولة يوما على صدر يوم

وأعشق عمري لأني

إذا متّ

أخجل من دمع أمّي

هرمت فردّي الطفولة حتى أشارك صغار العصافير

درب الرجوع ... لعش انتظارك[1].

فمطالب درويش ليست بالكبيرة ولا هي كما يطلبها باقي البشر إنّما هي مطالب مثّلت أبسط من حقوقهم ، ومادامت مطالبه بهذا القدر من البساطة فإن ذلك دليل على أنّ حرمانه أقسى حرمان يمكن أن يعيشه إنسان وغربته فاقت كل غربة وحنينه تعد كل حنين المشتاقين .

[1]- محمود درويش، الديوان ، الأعمال الأولى ، ج1، مج عاشق من فلسطين ،ص: 106

وحنين درويش إلى سماع أخبار عن أهله واشتياقه لهم دفعه للتساؤل في لهفة عن حالهم كيف صار بعده وهل تغيّرت طباعهم أم بقيت مثلما تركهم يقول:

فكيف حال والدي ؟

ألم يزل كعهده يحبّ ذكر الله

والأبناء ... والتّراب... والزيتون؟

وكيف حال إخوتي

هل أصبحوا موظّفين ؟

وكيف حال جدّتي

ألم تزل كعهدها تقعد عند الباب

تدعوا لنا

بالخير والشباب ... والثواب[1].

وولّدت عذابات الغربة في المنفى لدى الشاعر حنينا جديدا للزمن الماضي " زمن الطفولة" ليتذكر أيام الصبا والأماكن التي مرّ بها والبيوت التي كان يدخلها يقول في مجموعته أحبك أو لا أحبك 1972:

حالة الاحتضار الطويلة

[1] - محمود درويش، الديوان ، الأعمال الأولى ، ج1، مج عاشق من فلسطين ،ص: 44، ص:45

أرجعتني إلى شارع في ضواحي الطفولة

أدخلني بيوتا

قلوبا

سنابل

جعلتني قضية

حالة الاحتضار الطويلة[1].

ويبحث درويش عن حل ينسيه غربته ، فلا يجد غير الموت أو الأماني الكاذبة يمنّي بها نفسه يقول:

أيها الوطن المتكرر في المذابح والأغاني

دلني على مصدر الموت

أهو الخنجر

أم الأكذوبة؟[2].

[1]- محمود درويش : الديوان ، الأعمال الأول ،ج1، 2،ص:35

[2]- المصدر السابق، ج2 ، ص: 22

ويستدرك الشاعر نفسه ليعبّر عن حاله الحزين وهو غريب عن وطنه بعيد أن أمّه أين ترك قلبه في يديها ووجهه على منديلها الذي رسمته دموع عينيها المنهمرة على فراقه مبديا تأهبه للموت يقول:

أنا حالة تفقد حالتها

حين تكفّ عن الصّراخ

أكلّما خرجتُ من جلدي

ومن شيخوخة المكان

تناسل الظل ، وغطَّاني... ؟

أكلما أطلقت رياحي في الرّماد

بحثا عن جمرة منسية

لا أجد غير وجهي القديم الذي تركته

على منديل أمّي

إني قابل للموت

كالصاعقة[1].

[1]- محمود درويش : الديوان ، الأعمال الأول ،ج2، ص:28

وطال الوجد بالشاعر وأَسَرَتْهُ نيران الحنين ، وهو بعيد عن وطنه وعن أهله ، فلم يجد سبيلا إلا التأهب والاستعداد للانفجار ، للرحيل ، للموت ،يقول:

على حافّة الحلم

كما تتأهب الآبار اليابسة

للفيضان

إني أتأهب للانطلاق

على حافّة الحلم

كما تتأهب الحجارة

في أعماق المناجم الميتة

أني أتحفز للموت[1].

ويبكي درويش قهرا وأسى فهو عاجز عن معرفة أخبار الأهل ، ليدفعه الحنين إلى الرغبة في معرفة أحوالهم يقول:

سمعت في المذياع

رسائل المشردين ... للمشردين

[1]- محمود درويش: الديوان ، الأعمال الأولى ،ج2، ص: 41، ص:42

جميعهم بخير

لكنني حزين

تكاد تأكلني الظنون

لم يحمل المذياع عنكم خبرا...

ولو حزين

ولو حزين[1].

فحين انقطعت أخبار الأهل عن الشاعر ولم يجد سبيلا للوصول إليهم ومعرفة حالهم تمنى لو ذُكر حالهم حتى وإن كان سيئا يبعث على الأسى، فالمهمّ عنده أنه يسمع أنباءهم لتهدأ نيران الظنون التي تأكله.

وتستحضرنا ّمرة أخرى قصيدته "رسالة من المنفى" التي يشكو فيها غربته لأمّه فيقول:

الليل يا أمّاه ذئب جائع سفاح

يطارد الغريب أينما مضى ...

ويفتح الآفاق للأشباح

[1] - محمود درويش: الديوان ، الأعمال الأولى ،ج2، ص: 45، ص:46

وغابة الصفصاف لم تزل تعانق الريح.[1]

فالليل تمثل للشاعر على هيئة ذئب جائع يفترس الغرباء ويطارد باستمرار من يحمل ذكرى الأهل والوطن.

وعجز الشاعر عن تغيير مصيره جعله يتساءل في حيرة وذهول سبب الحال الذي آلوا إليه فيصوره على أنّه موت غير نهائي يقول:

ماذا جنينا نحن يا أمّاه

حتى نموت مرتين

فمرّة نموت في الحياة

ومرّة نموت عند الموت![2].

وتؤرقه مرارة الغربة ليقول:

هل تعلمين ما الذي يملأني بكاء

هبي مرضت ليلة... وهدَّ جسمي الداء[3].

فشدة الشوق والحنين جعلته عليلا ، وهل هناك أشد من داء الحنين للأهل والرفاق والوطن حين يعصف بالبعيد ؟.

---

[1] - محمود درويش: الديوان ، الأعمال الأولى ، ج2، ص: 46

[2] - المصدر السابق، ج1، ص:46

[3] - المصدر السابق ، ص:46

ويكبر الشّعور بالغربة في نفس الشاعر مع كل لحظة تمرّ من عمره، ما يدفعه للشكوى منها ومن منفاه إلى سميح القاسم في رسائله فيقول :« قريبا ست عشر سنة ... ست عشر سنة كاملة كافية لأن تتحول الحشرات الصغيرة على جراح أيوب إلى طائرات نفاثة ، ست عشر سنة تكفي لأصرخ ، بدّي أعود، بدّي أعود ... كافية لأتلاشى في الأغنية حتى النصر أو القبر ... ولكن أين قبري يا صديقي؟ أين قبري يا أخي؟ أين قبري؟ »[1].

ويواصل محمود درويش سرد معاناته ووصف أوجاعه وهو يشكو المنفى داخل ذاته من خلال عرض حوار له جمعه بصحفي في التلفزيون الهولندي يقول: « انقضَّ عليّ أحد المحاورين ، وهو كاتب فلندي شهير بهذا السؤال المدهش ... هل تعرف كيبوتس" سعيور" ؟، أجبت نعم أعرف أنقاضي، ولكن لماذا تحرّك في هذا العطش؟ قال: أنا من هناك . أعني عشت هناك عشر سنين ومن حقي أن أعود إلى هناك في أيّ وقت أشاء...

قلت ... في أيّ وقت تشاء، لماذا؟

قال... لأنّي يهودي.

قلت له وقد تحول إلى مرآة ، يا سيد دانيال كاتس ... يبدوا لي أنّك تعرف أني ولدت هناك ، تحت غرفة نومك ، وتعرف أنّ لا حقّ لي في العودة إلى مكان ولادتي بينما

[1]- نزيهة زاغر: أدب الرسائل في العصر الحديث ، مراسلات محمود درويش وسميح القاسم أنموذجا، مخبر وحدة التكوين والبحث في نظريات القراءة ومناهجها، جامعة محمد خيضر بسكرة، الجزائر، 2009 م، ص:3

أنت الفلندي صاحب العشرين ألف بحيرة ، تملك الحقّ في العودة إلى بلادي في أيّ وقت تشاء... »[1]هذا ما يوضّح عذابات درويش من خلال رده على الصّحفي في دهشة وذهول مما يجري ،فدرويش محروم من العودة إلى وطنه بينما من حقّ الغريب أن يدخل فلسطين وقت ما شاء ، وهذا الذي يحيلنا إلى ما كان يؤرق الشاعر ويهز كيانه " مشكلة الانتماء وضياع الهوية"فهو حرم حقّ العودة لبلده لكونه فلسطيني وحرم من حقوقه الشرعية التي منحت لغريب عنه وعن بلده .

واستمرار معاناة درويش في المنفى وشعوره الدامي بالغربة دفعه لخلق آخر معه في قصائده ، فاستعان بامرؤ القيس الذي عاش بدوره حياة الغربة، فقد جمع هذا الشعور–بالغربة–بين الشاعرين كونهما عاشا نفس الواقع وهو البعد عن الوطن والعيش في بلد الغرباء حتى وان اختلف زمن تواجدهما ، فكما وجد امرؤ القيس يوما أنسه في قبر امرأة غريبة وناشد غربته وغربتها فكذلك محمود درويش أبدى أنسه بغربة امرؤ القيس، حيث يقول:

يا اسمي الغريب : سوف تكبر حين تكبر

سوف تحملني وأحملك

الغريب أخ الغريب[2].

[1]– نزيهة زاغر: أدب الرسائل في العصر الحديث ، مراسلات محمود درويش وسميح القاسم ، ص:3

[2]– محمود درويش: الجدارية، ط2 (دت)، ص:3

ويلتقي محمود درويش مع امرؤ القيس في رحلة مؤلمة ، فالإحساس باقتراب النهاية والشعور بالغربة قد وحّد رحلة الشاعرين ، وجمع مأساتهما فغربة درويش(غربة طويلة ومتأصّلة في داخله وتمتدّ جذورها في روحها منذ أيّام امرؤ القيس حتى يومنا هذا)[1]، وهذا ما يودُّ درويش إيصاله باستحضاره غربة امرؤ القيس.

ودفع الاغتراب عن هذه الحياة الفعلية بدرويش إلى استحضار صورة العاشقان الذين فرقتهما الأقدار ليقول في قصيدة " قناع مجنون ليلى":

وجدت قناعا فأعجبني

أن أكون آخري ، كنت دون

الثلاثين ، أحسب أن حدود

الوجود هي الكلمات ، وكنت

مريضا بليلى ، كأني فتى شعّ

في دمه الملح ، إن لم تكن هي

موجودة جسدا فلها صورة الروح

في كل شيء

[1]- عالية محمود صالح : اللغة والتشكيل في جدارية محمود درويش ، مجلة جامعة دمشق ، المجلد26، العدد الثالث +الرابع2010، ص:3

أنا قيس ليلى

غريب عن اسمي وعن زمني[1].

فالشاعر يحاول إسقاط حالة العشق بين الحبيبين وفراقهما على نفسه وعلى حبيبته فلسطين محاولا من خلالها جسّ نبض الحبيبين الذين أبعدا قسرا عن بعضهما ما إذا كان هذا الحبّ قد قضي عليه مع هذا البعد أم لا، لأجل أن يتمكن من معرفة مدى ما بقيت حبيبته فلسطين حاضرة في قلبه مع هذا البعد الطويل وما إذا كان قد غطّى فراغ حبّه لها بحبّ وطن آخر وألفته.

[1]- محمود درويش : سرير الغريبة ،ط2،(دت)، ص:51

خاتمة

خاتمة:

كثيرا ما عني الشعر الفلسطيني وشعر محمود درويش باهتمام النقاد والباحثين في ميدان الشعر السياسي والثوري المتقد بلهيب التمرد و الثورة ، إلا أنّ هذه الدراسة قد حاولت أن تأخذ منحى آخر لتغوص في أعماق الشعر الفلسطيني وتحديدا في شعر محمود درويش، لتكشف لنا عن الجانب الخفي والمظلم في شعره والمتمثل في الشعور بالغربة والحنين واللذان عبّر عنهما درويش بنفس آسية تتحرق شوقا للعودة إلى الوطن والأهل ، فشملت بذلك غربته ثلاث محطات قهرت الشاعر حق قهر، والمتمثلة في غربته المكانية والزمانية والروحية ، وككل بحث يتوج في نهايته بمجموع نتائج فقد خلصت دراستي بمجموعة نتائج أهمها:

ــ على الرغم من تعدد معاني الغربة الاغتراب والتي أخذت مجالات واسعة في الدراسات القديمة و الحديثة إلا أنها اتفقت كلها على معنى واحد وهو البعد والنوى سواء كان قسريا أو اختياريا.

ــ أن الشعور بالغربة ليس وليد لحظة أو يوم إنّما هو وليد سنوات عديدة يعاني منها الشاعر متأصلة في أعماق قلبه.

ــ أن غربة الشاعر الفلسطيني تخرج من كونها غربة ذاتية فردية لتصبح غربة جماعية تعبر عن مأساة شعب بأسره .

ــ أن غربة الشعب الفلسطيني ومن بينهم الشعراء الفلسطينيين إنما كانت غربة قسرية فرضتها ظروف الحياة المسيّرة من طرف الاحتلال.

ــ أن غربة المثقف الفلسطيني اليوم هي غربة عن مقومات وطنه أكثر منها عن وطنه.

ــ أن الشعر الفلسطيني على الرغم من اتسامه بالموضوعات السياسية والثورية إلا أنه عرف جانبا من الغربة والحنين في قلب هذه الموضوعات.

ــ أن الاستعمار الصهيوني وسلطته الرادعة ، وقوانينه التعسفية كانت وراء الإحساس الأول بالاغتراب عند الشاعر الفلسطيني.

ــ أن أحداث النكبة الأولى 1948 والتي كانت وراء التشتت الأول للشاعر محمود درويش بين القرى والمخيمات والملاجئ قد مثلت لديه مأساة طفولة حقيقية عاشها في صغره والتي بقيت حاضرة بتفاصيلها في ذاكرته طوال حياته فشكلت بذلك إحدى أهم الأسباب الأولى الباعثة على الشعور بالغربة داخله.

ـــــ أن حياة المنفى التي عاشها الشاعر قد عمّقت الشّعور بالغربة داخله وزادت من لهيب الحنين بين جوانحه.

أن هوية الانتماء الفلسطيني لبلده فلسطين قد أضحت بمثابة الإشكالية عليه ، فمشكلة الانتماء حرمته من كل حقوقه كمواطن بل كإنسان له حقوق كباقي البشر.

ــ أن ما ورد في شعر السجون في فلسطين من مواضيع نضالية وسياسية قد تعدتها على مواضيع أكثر رهافة ورقة في الإحساس والتي صبغت بالشعور بالغربة والحنين .

وختاما أرى أنه من الواجب تشجيع البحوث والدراسات المهتمة بالنصوص التي تمت كتابتها في السجون وذلك بالتركيز على جانب الغربة والحنين ، بعيدا عن مواضيع الثورة والسياسة حيث أن هناك الكثير من الشعراء الذين كتبوا أشعارهم في السجون وتم تناولها على أساس الاتجاه الثوري والسياسي في حين توافرت أشعارهم على التصريح بمرارة الغربة التي يحيونها وحنينهم المتعدد إلى الوطن والحرية أمثال توفيق زياد ومعين بسيسو.

قائمة المصادر والمراجع:

1- القرآن الكريم

أ)الكتب:

2 – البخاري: محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي: الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم ، صحيح البخاري،تحقيق محمد زهير بن ناصر الناصر،ط1،دار طوق النجاة للنشر ،(دت).

3 – النووي شرح الأربعين النووية في الأحاديث الصحيحة النبوية ، شرح ابن دقيق العيد، ط1، الشركة الجزائر اللبنانية (1428ه ، 2007م).

4- الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر: الحنين إلى الأوطان ،ط2، دار الرائد العربي للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، (1402ه، 1982م).

5 – الجوهري أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري : الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية ، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار ، ط4، دار العلم للملايين ، بيروت ،(1407ه، 1987م)

6 – الفيروزآبادي مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب : القاموس المحيط ، ط1، تحقيق مؤسسة الرسالة ، بيروت ،لبنان ، (1428ه ،2005م).

7 – أبي الفرج الأصبهاني : أدب الغرباء ،(دط)، المنجد للطباعة والنشر ، دار الكتاب الجديد ، بيروت ، لبنان ، 1917م.

8 – ابن القيم الجوزية : مدارج السالكين ، ط1، ج2، القاهرة ، 1992

9 -- ابن تيمية وآخرون : الغربة والغرباء ، تحقيق وضبط ودراسة سليم عبد الهلالي ، ط1 ، دار الهجرة للنشر والتوزيع،(د ت).

10 - أشرف علي دعدور : الغربة في الشعر الاندلسي عقب سقوط الخلافة ، ط1 ، دار نهضة الشروق للطباعة واانشر ، القاهرة ،2002م.

11 ايريك فروم : المجتمع السوي ، ترجمة محمود منقذ الهاشمي ، ط1، 2009.

12ـ- توفيق زياد : ديوان توفيق زياد ، (دط ، دت).

13 - ـجمال الدين ابن منظور: لسان العرب ، مجلد 1،ط3 ، دار صادر للنشر ، بيروت ، 1414ه

14- حسن نعيسة : شعراء وراء القضبان ، من الأدب السياسي ،ط1، دار الحقائق للطباعة والنشر ، 1986م.

15 - رقية زيدان : أثر الفكر اليساري في الشعر الفلسطيني ، شعر محمود درويش ، سميح القاسم ، توفيق زياد، ط1، دار الهدى للطباعة والنشر، حيفا ، 2009م.

16ـ رجاء النقاش: محمود درويش شاعر الأرض المحتلة ، ط2، دار الهلال للنشر ، (د ت).

17- زاهر الجوهر حنني: من أدب الأسر ، شعر المعتقلات في فلسطين ، (دط، دت).

18 - سالم المعوش:شعر السجون في الأدب العربي الحديث والمعاصر ، ط1، دار النهضة العربية ، بيروت ، لبنان ،(1424ه، 2003م).

19- سلمى الخضرا الجيوسي ، الاتجاهات والحركات في الشعر العربي الحديث ،ط1، دار نشر مركز الوحدة العربية ، بيروت لبنان ، أيار / مايو ، 2001م.

20 – سميح القاسم : ديوان سميح القاسم ، (دط) ، دار العودة للطباعة والنشر ، بيروت، 1987م.

21 – شهاب الدين محمد بن أحمد الأبشهي : المستطرف في كل فن مستظرف ، ط1، دار أصالة للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 2000م.ـــ

22 – طالب حسين : الاغتراب ، تحليل اجتماعي ونفسي لأحوال المغتربين وأوضاعهم ، ط1، عمان، (1416 ه، 1992 م) .

23 ـــ- عبد الرحمان الخليل بن أحمد الفراهيدي : العين ، تحقيق مهدي مخزومي وآخرون ، ج4 ، (100 ه، 710م) .

24- عبد الرحمان بن ناصر السعدي : تيسير الكريم الرحمان في تفسير كلام المنّان، تحقيق عبد الرحمان بن معلا اللويحق ، ط1، دار ابن حزم لطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان، (1424هـــ ، 2003م)

25- عبد اللطيف محمد خليفة : دراسات في سيكولوجية الاغتراب ، (دط)،دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة ، 2003م .

26- عمر بوقرورة : الغربة والحنين في الشعر الجزائري الحديث (1945، 1962) ، مركز منشورات جامعة باتنة ، مطابع عمار قرفي ، باتنة ، الجزائر ، 1997م .

27 – غسان كنفاني : الأدب المقاوم تحت الاحتلال (1948، 1962) ، ط1، دار النشر ، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، (دت) .

28 – فتحية محمود : محمود درويش ومفهوم الثورة في شعره ، المؤسسة الجزائرية الوطنية للطباعة والنشر 1987.

29 – فدوى طوقان : ديوان فدوى طوقان (دط، دت).

30 – ـــمحمد غنيمي هلال :الرومانتيكية ، (دط)،نهضة مصر للطباعة والنشر ،(دت).

31 – محمد راضي جعفر: الاغتراب في الشعر العراقي المعاصر مرحلة الرواد،(دط)، دراسة منشورات اتحاد الكتاب العرب، 1999م.

32 – محمد محسن صالح : القضية الفلسطينية خلفياتها التاريخية وتطوراتها المعاصرة ، (دط) ، مركز الزيتونة للدراسات والاستثمارات ، بيروت ، لبنان ، (1433 ه ، 2012م).

33 – محمود درويش: الديوان ، (دط، دت).

34 – محمود درويش: الديوان ، الأعمال الأولى ، ج1، ج2 ، ج3، ط جديدة رياض الريس للكتب والنشر ، كانون الثاني ، يناير ، 2009.

35 – محمود درويش : الأعمال الكاملة ، إعداد علي مولا، (دط)، منتدى مكتبة الإسكندرية ، (دت).

36 –ـــ محمود درويش : الجدارية ، ط2 ، (دت).

37– محمود درويش : أنا الموقع أدناه ، بحضور ايفانا مرشليان، (دط)،دار الساقي ،1991.

38– ـــمحمود درويش: سرير الغريبة ، (دط، دت).

39 – محمود درويش : يوميات الحزن العادي ، ط1، (دت).

40 –ــ مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشري النيسابوري: المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، (دط)، دار احياء التراث العربي ، بيروت ،(دت)

41– معين بسيسو: الحب في غرفة الإنعاش ، دفاتر فلسطينية، ط2، دار الفارابي للطباعة والنشر ، بيروت، 1987.

42– معين بسيسو : ديوان معين بسيسو، (دط ، دت).

43 – يحي الجبوري : الحنين والغربة في الشعر العربي، الحنين إلى الأوطان ، ط1، دار النشر مجدلاوي ، المملكة الأردنية الهاشمية ، (1428 ه ، 2008 م).

ب ــ الرسائل الجامعية :

44 ــ أمين صالح عبد ربه ، الغربة والحنين في الشعر الفلسطيني بعد المأساة ، رسالة دكتوراه ، جامعة الأزهر، (1397 ه، 1977م).

45 ــ جمال مجناح : دلالات المكان في الشعر الفلسطيني المعاصر بعد 1970 ، رسالة دكتوراه ، جامعة باتنة ، الجزائر، (1428ه،1429ه)،(2007م،2008م).

46 ــ حمة دحماني : ظاهرة الغربة في شعر مفدي زكريا ، رسالة ما جيستر ، جامعة منتوري ، قسنطينة ،(2005م، 2006م).

47 ــ عبد الناصر أبو قاعود : تجربة التعذيب لدى الأسرى الفلسطينيين وعلاقتها بالفكر الأخلاقي ، رسالة ماجيستر،غزة،(1429ه ، 2008م).

48 ــ ليانة عبد الكريم عبد ربه، المكان وتحولات الهوية عند محمود درويش ، رسالة ماجيستر ، جامعة بيرزدت ، فلسطين ، 2012م.

49 ــ معاذ محمد عبد الهادي : البنية الإيقاعية في الشعر الفلسطيني المعاصر ، شعر الأسرى أنموذجا، رسالة ماجيستر، غزة، (1427ه، 2006م).

ج ــ المجلات والدوريات والمقالات:

50 ــ عالية محمود صالح : اللغة والتشكيل في جدارية محمود درويش ، مجلة جامعة دمشق ، المجلد 26، العدد الثالث +الرابع، 2010م.

51 ــ ميسون جمال مصطفى : الغربة والحنين في الشعر الفلسطيني ، مقال بقلم السبت 5 تموز، 2008م.

52 ــ نزيهة زاغر : أدب الرسائل في العصر الحديث ، مراسلات محمود درويش وسميح القاسم أنموذجا ، مخبر وحدة التكوين والبحث في نظريات القراءة ومناهجها ، جامعة محمد خيضر بسكرة ، الجزائر ، 2009م.

فهرس الموضوعات الصفحة

إهداء

مقدمة..... أ ، ج

تمـــهيـــــــــــــــــد: ماهية الغربة والحنين.....23/6

الفصل الأول: الغربة والحنين في الشعر الفلسطيني.....45/25

- أنواع الغربة ، أسبابها ومظاهرها.....37/24

1) أنواع الغربة:.....25

أ) غربة مكانية.....25

ب)غربة زمانية.....27

ت)غربة روحية.....28

2) أسباب الغربة:.....29

أ)التعذيب والاعتقال.....30

ب) التشريد والنفي.....32

3) مظاهر الغربة:.....34

أ) العجز.....34

ب)اللامعنى.....35

ت)اللامعيارية.....36

ث)العزلة الاجتماعية.....36

ج) الاغتراب عن الذات.....37

2) موضوعات شعر الغربة والحنين في الشعر الفلسطيني.....37

بعض شعراء فلسطين ومواضيع الغربة في شعرهم.....37

1ــ سميح القاسم.....40

2ــ فدوى طوقان.....43

3ــ معين بسيسو 44

4ــ توفيق زياد.....45

الفصل الثاني: دراسة حالة محمود درويش.....120/46

1ــ محمود درويش حياته:.....47

2ــ بواعث الغربة –أو الاغتراب – والحنين في شعر محمود درويش.....51

أــ بواعث اجتماعية:.....52

1ــ طفولته المعذبة –المحرومة–.....52

2 ــ الشتات والتشرد.....57

3 ــ انتماء الشاعر الاجتماعي 69

ب ــ بواعث سياسية: 72

1 ــ احساسه بقضية الوطن 72

2 ــ السجن 75

3 ــ المنفى 77

3 ــ تجليات الغربة والحنين في شعر محمود درويش.....81

أ) غربة مكانية 81

ب)غربة زمانية.....95

ت) غربة روحية.....107

خاتمة 121

قائمة المصادر والمراجع 124

فهرس الموضوعات.

ملخص:

جاءت هذه الدراسة كمحاولة لإماطة اللثام عن ظاهرة الغربة والحنين في الشعر الفلسطيني وعند الشاعر محمود درويش ، فموضوع الغربة والحنين من المواضيع الهامة والبارزة في حياة الإنسان كونها تطبع شعوره، وتعكس إحساساته الذاتية ، وقد انعكست هذه الظاهرة في أدبنا العربي إلا أنّها سجّلت حضورها بقوة في الشعر ، حيث تناولت أنواع الغربة ، أسبابها ومظاهرها وسعيت للكشف عنها في الشعر الفلسطيني ، كما حاولت إبرازها في شعر محمود درويش.

Résumé :

Cette etude était une tentative pour lever le voile sur le phénoméne de l' aliénation et de la nostalgie dans la poésie paléstinienne et le chez Mahmoud darwiche .

Le théme de l' alienation et la nostalgie est l' un de sugets importants dans la vie humaine › il reflète les sentiments de l' ndividu ce phénoméne est présent dans la littérature arabe et surtout dans la poésie .

Le phénomene a été present dans notre littérature arabe et natamment dans la poésie .

j' ai abordé les type d' aliénation › ses éléments déclencheurs ainsi que ses aspects en essayant de la mettre en évidence dans la poesie de mahmoud darwich